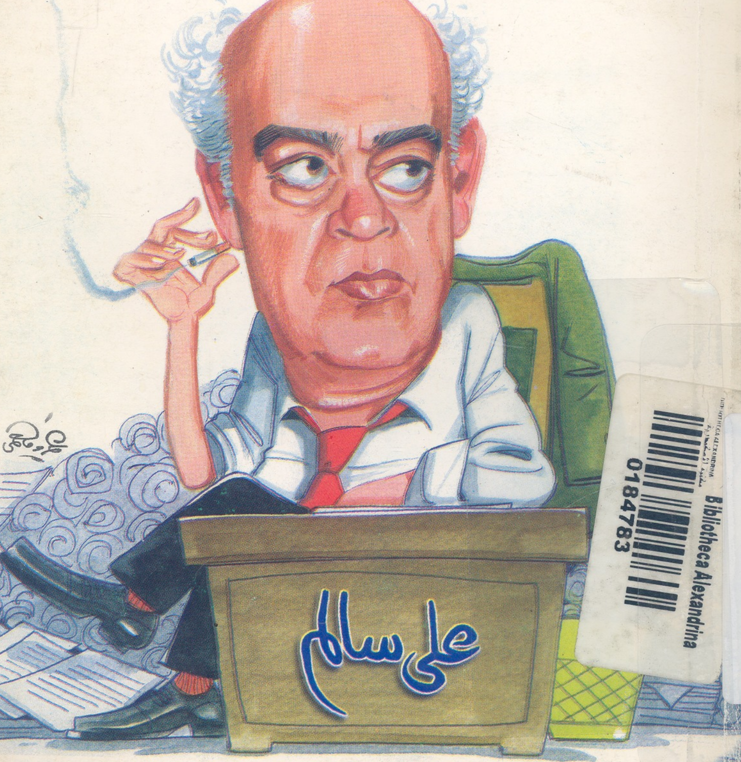
كتاب اليوم

هل لديك أقوال أخرى؟



دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعدة
رئيس التحرير :
نبيل أباظة

□ عدد أكتوبر ١٩٩٩ □

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى ٢ دينار
المغرب ٢٠ درهما
لبنان ٤٥٠٠ ليرة
الأردن ٢٠٠٠ فلس
العراق ٧٠٠٠ فلس
الكويت ١,٥ دينار
السعودية ١٢ ريالاً
السودان ٣٢٠٠ قرش
تونس ٢ دينار
الجزائر ١٧٥٠ سنتا
سوريا ١٢٥ ل. س
الحبشة ٦٠٠ سنت
البحرين ١,٢٥٠ دينار
سلطنة عمان ١,٢٥٠ ريال
غزة ٢,٥٠ دولار
ج. اليمنية ١٥٠ ريالاً
الصومال، نيجيريا ٨٠ بنى
السنغال ٦٠ فرنكا
الإمارات ١٢ درهما
قطر ١٢ ريالا
انجلترا ٢ جك
فرنسا ١٠ فرنكات
المانيا ١٠ ماركات
إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
هولندا ٥ فلورين
باكستان ٣٥ ليرة
سويسرا ٤ فرنكات
اليونان ١٠٠ دراخمة
النمسا ٤٠ شلنا
الدنمارك ١٥ كرون
السويد ١٥ كرون
الهند ٣٥٠ روبية
كندا - أمريكا ٣٠٠ سنت
البرازيل ٤٠٠ كروزيرو
نيويورك - واشنطن ٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس ٤٠٠ سنت
استراليا ٤٠٠ سنت

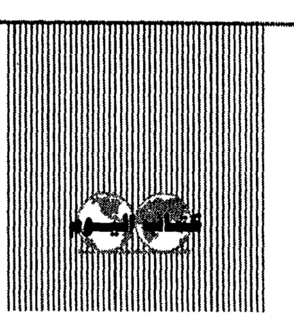
● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

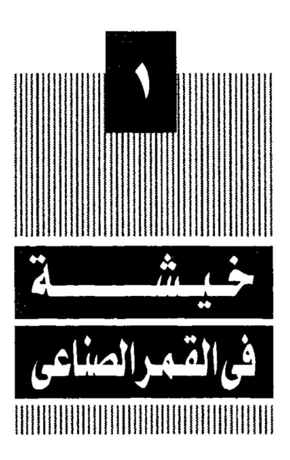
دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا
اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا
أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا
أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات
٣ (أ) ش الصحافة
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠
● تلكس دولى : ٠ ٢٠٣٢١
● تلكس محلى : ٢٨٢
● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة
● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



هل لديك أقوال أخرى ؟

على سالم



فى سن الخامسة لم يكن خيشة يخشى أى مخلوق فى الحارة. كان شريراً لدرجة مبدعة ومفزعة، ومن المشاهد المألوفة فى الحارة أن تراه جارياً صارخاً: الحقينى يا مّه، وفى أعقابه رجل يصرخ هو الآخر غاضباً، أو سيدة ترقع بالصوت الحيانى أو عدة أطفال أصابهم بأذى أو أفسد عليهم لعبتهم. ومن مآثره التى شاهدتها بنفسى أنه اقترب ذات مرة من أحد زبائن المقهى وقال له فى براءة: تسمح لى أشرب يا عم.

– اشرب يابنى.

تناول خيشة كوب الماء فى امتنان وفجأة وبهدوء دلقه على فحم الجوزة المشتعل ثم تناول كوب الشاى ودلقه على الأرض أمام الرجل المصعوق ثم أطلق ساقيه للريح. بالطبع أسرع الرجل خلفه بعد أن أفاق من المفاجأة، إلى أن وصل إلى أمه، أم خيشة

التى كانت تسكن فى بدروم أحد البيوت القديمة.

كان خيشة يصرخ بجملة واحدة يكررها بلا انقطاع: ما حصلش والنبى يا مّه.. الماية هى اللى وقعت منى.. الحقينى يا مّه.

ولكن أم خيشة التى كانت على وعى بكل طاقة الشر والعدوان عند ابنها، ردت عليه على الفور بصيحة اهتزت لها الحارة: إخرس يا بن الكلب يا مؤذى .. هو أنا مش عارفاك، والله لحاوريك.

ويبدأ الحوار المعاد المكرر الذى حفظناه من فرط ما سمعناه: مش تربى ابنك يا أم خيشة.

– والنبى يا خويا نزلت فيه ضرب إمبارح لحد إيدى ما وجعتنى، وجه أبوه ربطه فى السرير وقعد يضرب فيه طول الليل، وبعدين خاله جه ضربه قلمين ورّم له إصداغه، وبعدما اتعشى جه عمه ونزل فيه ضرب لحد أذان الفجر ما قال الله أكبر .. حقك علّى وادى راسك أبوسها.. أهىَ. وبحركة مفاجئة تمد ذراعين قويتين تجتذب بهما رأس الرجل فى عنف وهو يقاومها فى ضعف ثم تقبله بالقرب من جبينه قبلة قوية وكأنها ختم بوسطة. وينصرف الرجل وننصرف نحن ويختفى خيشة ليعود بعد قليل وقد ارتكب مصيبة أخرى.

أحياناً كان ضحايا خيشة يصعدون شكواهم إلى مستوى أعلى فيتوجهون إلى عم بندق العجلاتى خال خيشة الذى يقع دكانه على أول الحارة، وبعد أن يستوعب ما حدث كانت تنتابه نوبة عصبية فظيعة، وفجأة يدخل مسرعاً إلى الدكان ويخرج ومعه خرطوم كاوتش أو سيخ حديد وهو يصيح: والله العظيم المرة دى

لازم أموته، الواد ده جايب لنا العار وقلة القيمة ومزّعل مننا كل أهل الحارة.. لازم أموته أو على الأقل أرقده في المستشفى .. مافيش حل معاه غير كده.

حينئذ كان الفزع يستولى على الجميع فقد كان معروفاً عنه أنه متهور لدرجة لا يمكن التنبؤ بها، وهو عادة يقضى عدة شهور كل عام فى السجن فى جرائم بلطجة وتعدى، لذلك كان الآخرون يتدخلون بسرعة لحماية خيشة بما فيهم الضحية شخصياً: خلاص يا معلم، قلبك أبيض .. ده عيل فى النهاية .. مسير الأيام تعقله ... بس تقول لاختك تشد عليه شوية.

ويستمر خيشة في غزواته ويستمر الناس فى الشكوى ويستمر أهله فى ضربه، ولكن هل كانوا يضربونه فعلاً؟ الواقع أنه لم يحدث أن أم خيشة ضربته، ولم يحدث أن ضربه أبوه أو عمه أو خاله، نحن نسكن فوقهم مباشرة ولم يحدث أن سمعناهم يضربونه أو حتى يعنفونه كما يفعل معنا أهلنا، على العكس من ذلك كانت أصواتهم ترتفع عندما كانوا يدللونه ويغرونه على التهام المزيد من الطعام .. لماذا تكذب أم خيشة؟ ولماذا يكذب خاله؟

أحياناً كانت الضحية بدافع اليأس أو الخوف من أسرة خيشة، كانت تكتفى بشتيمته من بعيد ولا تندفع خلفه، خيشة نفسه هو الذى كان يجرى إلى أمه ويرتمى فى أحضانها ويحكى لها ما ارتكبه فى فخار فتمطره بالقبلات وهى تقول: ده انت واد مؤذى بشكل .. إوعى تعملها تانى يا واد .. وإلا حاضربك .. هات بقى بوسة لامك يا واد .. يا خواتى .. عسل، سكر.

كان من السهل علينا أن نستنتج حتى فى هذه السن الصغيرة أن أسرة خيشة كانت تمتنع عن عقابه لأنه آخر العنقود، ذلك العنقود الذى لا نعرف شيئاً عن حبّاته السابقة، كما كان اسمه - كما عرفنا فيما بعد - مقصوداً به حمايته من الحسد، فلا يوجد على الأرض ما يدعو أى مخلوق لتسمية إبنه خيشة أى ممسحة. الهدف من إطلاق هذه الأسماء على البشر هو الإيحاء للآخرين بأنه لا قيمة لهم وبالتالى يكونون بمنأى عن الحسد والحقد والعداوة إذ لا أحد على وجه الأرض سيشعر بالغيرة من ممسحة أو يكن عداوة لمقشة مثلاً. غير أن صاحب الإسم المسكين يكون هو أول من يشعر بالضآلة وقلة الشأن عندما يكبر ويكتشف أن البشر لهم أسماء توحى بالقيمة مثل عادل وشاكر وحامد ومحمد وأحمد وعلى وسامى .. الخ، لا مفر فى هذه الحالة من أن ينشط العدوان بداخله ويصبح حرباً على الآخرين، لذلك سنلاحظ أن معظم الفتوات والمجرمين لهم أسماء من هذا النوع.

ومع بساطة ووضوح هذا التحليل إلا أننى واثق أن خيشة كان يمارس قلة الأدب لدوافع مختلفة تماماً، كان على يقين من أن أسرته «يسعدها» أن يؤذى الآخرين، وأنها تشعر باللذة من شكاوى الضحايا وتشعر بلذة مضافة فى تمثيل دور الغاضبين من أفعال ابنهم وأنهم لا صلة لهم بما يفعل، وبذلك يمكن اعتبار خيشة نفسه أحد ضحايا أسرته أيضاً، هو مدفوع للشر بقوة لا يملك لها رداً، فهو كأى طفل يريد الحصول على الحب والعطف والحنان من أهله، من أمه، ومن خاله، ومن عمه، من أعمامه، من

خالاته .. الخ، وهو مالن يحصل عليه إلا بأن يكون شخصاً قليل الحياء عديم الأدب. ضع نفسك مكانه، أنت لن تحصل على التقدير والاحترام من أهلك إلا فى حالة أن تكون غبياً وكاذباً وسىء الخلق، فماذا تفعل؟

غادرنا الحارة وغادرتنا الطفولة ومرت أعوام طويلة إلى أن اقترب منى أحد الشبان فى مناسبة ثقافية وقدم نفسه لى باسم عادل الرشيدى، قال لى أنه يعرفنى منذ زمن بعيد، منذ أيام كفر الطماعين البرانى فى حى الدراسة.

– نعم .. نعم .. لابد أن ذلك حدث من زمن طويل جداً ..

■ لن تتذكر الاسم فقد كان إسمى فى ذلك الوقت ... خيشة.

– صحت: خيشة المؤذى؟! سبحان مغير الأحوال والأسماء.

ضحك وقال: نعم، لقد قضيت سنوات طويلة فى قاعات المحاكم لكى أقوم بتغيير إسمى ..

– وأين تعمل الأن يا عادل؟

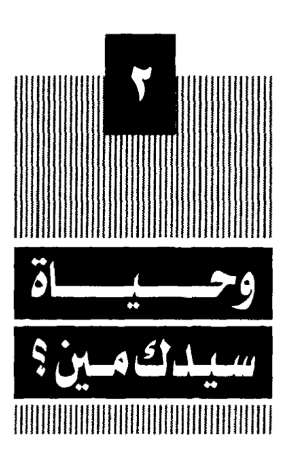
أرجوك، نادنى باسمى الحقيقى.. حتى الآن لدى مقاومة داخلية تجعلنى لا أعتز باسمى الجديد.. أشعر بأننى غريب عنه وهو أيضا غريب عنى.. أنا فى أفضل أحوالى عندما أكون خيشة.

– وماذا تعمل الآن يا عا ... أقصد يا خيشة؟

لقد حصلت على الماجستير فى علم الجمال وأعمل الآن فى مؤسسة إعلامية إعلانية ثقافية، لدينا جرائد ومجلات وشركات إنتاج فنى ومحطات إذاعة ومحطات تليفزيونية فضائية وأقمار صناعية.

تبادلنا أرقام التليفونات غير إنى لم أتصل به كما لم يتصل هو بى، ولكنى كنت أتابع نشاطه من بعيد.

كانت مقالاته آية فى الغباء وقلة الحياء وعندما ترك الصحافة وعمل مقدم برامج، كان له برنامج شهير يشتم فيه الناس من المحيط إلى الخليج، فتشتمه الناس من الخليج إلى المحيط، كانت تحدث بسببه أزمات دبلوماسية بين بعض البلاد العربية، ولكنها كانت تمر على خير دائماً، ولكنى مازلت على رأيى القديم الذى كونته فى طفولتى، إننى أراه ضحية مسكينة تمارس الأذى بالوكالة، فى أعمق الأعماق هو ليس مؤذياً، هو فقط خيشة، وعندما يكون الإنسان مجرد خيشة فالعمل الوحيد المناسب له هو أن يستخدم فى مسح البلاط ببعض الناس الذين يشعر تجاههم بالضآلة.



أحياناً يحدث تصادم بين شخصين أو صديقين أو حليفين بشأن موضوع ما، ويتصاعد الخلاف بينهما إلى الدرجة التى تظن معها أن علاقتهما قد انتهت إلى الأبد وفجأة يحدث التصالح بينهما فلا تعرف لماذا اختلفا ولماذا تصالحا وكأن هناك سراً «دفيناً» بينهما يخشيان من كشفه للآخرين. عندها نقول عنهما «أنهما دافنينه سوا» ما هى قصة ذلك المصطلح الشهير؟

يحكى أن اثنين من ظرفاء فقراء الصعيد كانا يجوبان الأرض بحثاً عن الرزق ومعهما جحش صغير يحمل أغراضهما البسيطة. ومن فرط الجوع والإجهاد مات الجحش المسكين فدفناه فى الخلاء فى نفس المكان الذى توقفا فيه ثم جلسا متهالكين على الأرض وقد ركبهما هم ثقيل، بعد لحظات مرت بهما امرأة قروية تسكن قرية قريبة، ألقت عليهما التحية فردا عليها باقتضاب، كانت المرأة

فضولية أو لعلها كانت تتمتع ببعض الميول الصحفية فسألتهما لماذا تجلسان هنا فى هذا الخلاء القفر؟

من المعروف أن الحزن والإجهاد يولدان عند الظرفاء ميلاً قوياً للمرح والدعابة خصوصاً مع الفضوليين فأجابها أحدهما وهو يشير إلى بقعة من الأرض: هذا المكان يرقد تحت ثراه مخلوق عظيم .. ونحن هنا لزيارته والتبرك به.. وفى الغالب سوف نقيم هنا للأبد..

فسألتهما بإلحاح: من هو؟.. ولأى مدى كان عظيماً؟.. هل كانت له كرامات؟

– نعم يا سيدتى.. كان أكثر المخلوقات على الأرض طيبة وصبراً وقدرة على التحمل، لم يكن يغضبه شىء، وكان صامتاً يفكر فى حكمة طول الوقت.. وكان.. وكان..

إندمجا الآن فى الدور، واصلا الحوار مع المرأة يعددان مناقب الفقيد فقالت المرأة فى حيرة: لم أسمع عنه من قبل..

– شأنه شأن كل العظماء يا سيدتى ... لا تعرف الناس فضائلهم إلا بعد أن يموتوا...

■ ماذا كان اسمه..؟

– حتى اسمه لا تعرفينه؟ اسمه سيدى الحمار.

■ هل أنتما من بنى أهله؟

– لا يا سيدتى .. فلا أحد يعرف له أهلا أو نسبا أو قرابة.. نحن مريدون له فقط.

■ إذا كان الرجل عظيماً لهذه الدرجة.. لماذا لا تبنيان له مقاماً يليق به؟

– لقد قررنا ذلك بالفعل.. ولكن لابد من مساعدة أهل الخير من أمثالك.

■ إطمئنا... سأبذل كل ما فى وسعى.

تركتهما المرأة وسارت فى طريقها إلى القرية، بعد ساعتين أرسلت لهما «طاجنا» من الحمام المحشى وملحقاته، وفى الصباح جاءهما طعام الإفطار يكفى عشرين فرداً.. الجبن.. الفول.. القشدة.. عسل نحل.. الفطير المشلتت..

وجاء آخرون، بعضهم استقر فى المكان، وتحول المكان بالفعل إلى مزار، ثم مولد فخم يقام فى كل عام، أما أعظم ما فى المكان فقد كان صندوق النذور المصنوع من خشب الماهوجنى والمرصع بالصدف والنحاس المشغول كان يمتلئ ويفرغ عدة مرات فى العام، أما فى أيام المولد فقد كان يمتلئ كل عدة ساعات. انتعشت حالة صاحبينا الظريفين ولم يعودا فقراء، أصبحا من أثرى الأثرياء، حسابات هائلة فى بنوك الداخل والخارج، قصور ذات حدائق غناء، بيوت صيفية وأخرى شتوية، وكأى شريكين فى مشروع مبنى على الكذب والأوهام بدأ كل منهما يسرق الآخر وذات يوم اتهم أحدهما الآخر بأنه استولى من صندوق النذور ومن المعونات والمنح التى أرسلها أهل الخير على أكثر من النصيب المستحق له فرد عليه مستنكراً: ما حصلش.. والله ما حصل ..

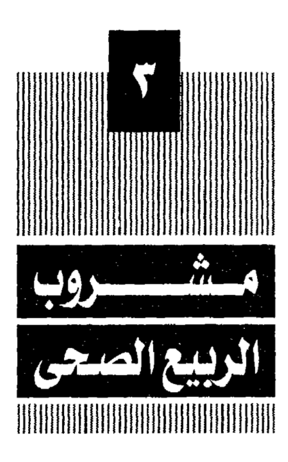


تحب أحلف لك بإيه؟ .. طب وحياة سيدى الحمار..

فرد عليه صارخاً: وحياة سيدك مين؟.. ده احنا دافنينه سوا.

هل عرفت الآن لماذا يتشاجر بعض الفرقاء من أصحاب القضايا العظمى ثم يتصالحون فجأة وكأن شيئاً لم يكن؟

السبب ببساطة هو أنهم دافنينه سوا..



كانت الجرائد قديماً، تهتم بالرأى والأدب والمساجلات السياسية والفكرية، وتعطى مساحة صغيرة للخبر، ثم ظهرت جرائد الإثارة. ولما كانت المعجزات هى أكثر الأشياء إثارة للعقل البشري، بالرغم من وعى الجميع بأن عصر المعجزات إنتهى، وإن المعجزة الحقيقية الآن، هى العلم ومحاولة فهم قوانين الطبيعة والحياة. غير أن الناس عندما يقف العلم عاجزاً، عن علاج مرض ما على استعداد لتصديق أية خرافة، تصف لهم علاجاً خرافياً، لعله يشفيهم أو يخفف أوجاعهم، هنا يبدأ دور صحافة الإثارة.

فمنذ أكثر من خمسين عاماً، نشر خبر صغير عن فلاح مريض بالسكر والضغط، وفقر الدم، والبلهارسيا، وأمراض أخرى، كان فى طريقه من قريته إلى مستشفى المركز، عندما شعر بالتعب، فجلس ليستريح فى حقل برسيم.

واستجابة لنداء غريزى غامض، أمسك ببعض فروع أوراق البرسيم ، ووضعها فى فمه وأخذ يمضغها، شعر بنشوة وانفتحت نفسه إلى البرسيم، فأكل وأفرط فى الأكل، ثم واصل طريقه إلى المستشفى ودخل على طبيبه المعالج، الذى أجرى الكشف عليه واستولت عليه دهشة كبرى، فطلب منه إجراء بعض التحليلات والاختبارات والعودة بعد أسبوع، حدق الطبيب مذهولاً فى نتائج التحليلات، التى كانت توضح أن الرجل لا يشكو من شىء، وإنه فى تمام الصحة والعافية. سأله الطبيب المنذهل، عما إذا كان قد تناول علاجاً مستورداً من الخارج، وصفه له طبيب آخر؟ فأجابه الفلاح : أنا خجل منك يا دكتور، دعنى أعترف لك ، لقد شعرت برغبة عارمة فى أكل البرسيم، فأكلت منه كمية كبيرة، شعرت بعدها أننى فى تمام الصحة والعافية.

حتى هنا والخبر انتهى، غير أن المحرر سأل بعض المتخصصين، فأفاد بعضهم بأن هذه الحكاية ممكنة الحدوث، فالعلم لم يعرف حتى الآن، ولم يهتم بمكونات البرسيم، نظراً إلى احتقار الناس له، باعتباره غذاء الحمير الأساسى، لو كان خالياً من العناصر الغذائية المفيدة، من أين تأتى الحميربهذه القدرة المذهلة على الصبر والتحمل؟ وتفجرت المعركة بين البرسيميين واللابرسيميين على صفحات الجرائد والمجلات، إلى هنا والأمر عادى، مجرد خرافة تضاف إلى الخرافات الموجودة فى المجتمع، ولكن بالفعل ظهرت طائفة جديدة من الناس هم «البراسمة» يأكلون البرسيم بحثاً عن الشفاء. ولكن الطامة الكبرى حدثت ،

عندما قرر صاحب محل عصير قصب شهير، الاستفادة من المعركة المثارة، التى وفرت له فرشة إعلامية ممتازة، بدأ الرجل يعصر البرسيم، بعد أن أطلق عليه (مشروب الربيع الصحى) ويبيعه إلى زبائنه هنيئاً مريئاً، أو بمعنى أصح هنيقاً مريقاً. لقد شاهدت بنفسى الازدحام الكثيف، وطوابير الناس التى كانت تقف أمام الدكان ليل نهار على مدار الساعة، هى كانت فرصة طيبة. فبدلاً من أن تأكل (حمل) برسيم، تستطيع شربه مكثفاً ومركزاً فى كوب واحد فى لحظات، لست أذكر هل شربت منه أم لا، لعلى قد أكون شربت منه كوباً واحداً، وهذا يفسر نوبات الغباء التى تعترينى أحياناً.

أصبح مشروب الربيع الصحى ومايثيره من صراع بين الحمير والآدميين، المادة المفضلة عند رسامى الكاريكاتير.

احتارت الحكومة، ماذا تفعل فالبرسيم فى حد ذاته ليست به عناصر ضارة، بدليل أن الحمير تأكله منذ آلاف السنين، ولاتشكو من أى مرض ولكن حدث ما جعل الحكومة تحزم أمرها وتغلق المحل على الفور، بعد أن ارتفعت أسعار البرسيم فى الأسواق ارتفاعاً مذهلاً، مما يهدد الحمير كمخلوقات وكثروة حيوانية، بل ربما يترتب على ذلك الإخلال بالحركة الاقتصادية كلها، فالحمار فى الريف هو بديل للطاقة الكهربائية، وهو البديل الوحيد للموتور، هو يصلح لحمل الأثقال بديلاً عن سيارة النقل الصغيرة، وهو أداة المواصلات للأفراد بين القرى والنجوع فى طرق غير ممهدة، لاتصلح حتى لسير الموتوسيكل والبسكليت، هو أيضاً ليس

في حاجة لمساحة كبيرة عند الركن مثل السيارة، وقيادته سهلة للغاية، يكفى أن تحفظ مقطعين صوتيين هما (شى أو حا) عند الانطلاق، و (هس) للفرملة، الجميل فى ركوبه عندما تنام فوقه بعد يوم شاق، أنك لن تضل طريقك، لأنه يعرف جيداً الطريق إلى البيت. أى أنه حتى لو كان البرسيم مفيداً للبشر، إلا أن الخسائر الناتجة عن ذلك فادحة ولا يمكن تحملها.

إن الخرافة ليست خطرة فى حد ذاتها، ولكن الخطر الحقيقى يأتى من هؤلاء المستفيدين منها، غير عابئين بمصالح البشر، حتى لو تطلب الأمر أن يطعموهم أكل الحمير.



نشـرت جريدة الأخبـار القـاهرية الخبـر التـالى تحت عنوان « عضـو بالشـورى يتـزعم ٢٥٠ مواطنا لمهـاجمـة قسم الخليـفة، لرفض القسم وساطة النائب للإفراج عن اثنين يدخنان الحشيش».

تزعم عـضو بمجـلس الشورى ٢٥٠ مـواطنا هاجم بهم قـسم الخليفة. قذف المتجمـهرون القسم بالحجارة وأصابوا جنديا وأمين شرطة وحطموا بعض سيارات الشرطة.. رفض المسئولون بالقسم وساطة نائب الشـورى للإفراج عن عاطل ونقـاش ضبطا يتعاطيان المخـدرات فى حفل عـرس، فـقاد الأهالى لمهـاجـمة القـسم. طلب مـجلس الشورى مـذكرة بالحـادث وأفـرج عن العاطل والنقـاش بالضمان المالى ١٠٠ جنيـه لكل منهما. تولى التحـقيق فى الحادث عصـام حسب الله وكـيل نيابة حـوادث جنوب القاهـرة بإشراف المستشار بكرى عبدالله المحامى العام لنيابات جنوب.

فقد تلقى اللواء محمود وجـدى مدير مباحث القاهرة بلاغا فى

الثالثة صباح أمس من سكان المحجر بالخليفة عن وجود حفل عرس يسبب لهم إزعاجا يحول بينهم وبين النوم. كلف العميد إسماعيل الشاعر رئيس المباحث لفحص البلاغ، انتقل الرائد محمد منصور والنقيبان وائل البهنساوى وعبدالرحمن خالد لحفل العرس، فوجدا سراج زكى (عاطل) وعلاء الدين (نقاش) يتعاطيان المخدرات علناً وعثر معهما على ٢ جرام حشيش فتم اقتيادهما إلى القسم.

تبعهما عضو مجلس الشورى وطلب إخلاء سبيلهما، فرفض المسئولون بالقسم، فقام بجمع أكثر من ٢٥٠ مواطنا وتوجه بهم للقسم وهم يرددون هتافات معادية للشرطة ويلقون بالزجاجات والحجارة على القسم. تمكنت قوة الشرطة من إلقاء القبض على ستة من المتجمهرين، وأمرت النيابة باستدعاء العقيد ماهر الجمال مأمور القسم والشهود لسماع أقوالهم وتحديد مسئولية عضو مجلس الشورى.

نشر الخبر بهذه الصورة قد يعطى انطباعا للقارىء بأن أعضاء مجلس الشورى عندنا يشيرون على الناس بتحطيم أقسام الشرطة أو أنهم - لا سمح الله - يشيرون عليهم بمقاومة السلطات والاعتداء على القانون. وإلى أن يشير بعض الناس على بعض الناس بإصدار تكذيب للواقعة كلها، سنسارع نحن لكشف جوانب الواقعة كما حدثت تماما دون إضافة أو حذف، إعطاء لكل ذى حق حقه.

فى حوالى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كان الفرح يلعلع وقد انسجم الجميع انسجاما عاليا بينما الجوزة تمر على المدعوين تسبقها عبارات مثل «مساء الخير، مساء الفل، مساء الجمال، شد

يا أبو أحمد.. الخ» وفجأة جـاءت سيارة الشرطة ونزل منها بعض الضباط وأمناء الشرطة والمخبرين، تجمد الكل فى أماكنهم وأصفر وجه العـريس، ولكن الدماء عـادت إلى وجهـه عندما اكـتشف أنه ليس هو المطلوب.

– الفرح ده بتاع مين؟

– بتاعنا يا باشا.. عقبال أولادك.

– طب خلاص.. كـفاية كده.. شطبوا، إطفى الأمـبلفاير يا بنى.. نزل السماعات.

– خـلاص يا حـضرة الضــابط.. اتفـضل أنت وأنا حـاخليـهم يشطبوا بعد شوية.

– ممكن أعرف حضرتك مين؟

– أنا مشير الشوارجى عضو مجلس الشورى.

– يا فندم الناس مش عارفة تنام.

– النوم هو سبب تخلـفنا يا حضرة الضــابط، لابد من اليقظة، نحن نمر بظروف حرجـة على المستوى الـقومى والوطنى، ظروف تتطلب أقصى درجات اليقظة.. إن مـهمتى هى أن أشير على الناس باليـقظة، وأنا بصراحـة سعيـد لأنهم يقظون لم ينامـوا حتى الآن وبذلك يفكرون فى مشاكل هذا الوطن.

– من حق الناس أن تنام يـا سيـدى، والقـانون يمنع أصـوات الميكروفونات بعد منتصف الليل.

– ليس بعـد منتصـف الليل، بل بعد السـاعـة حداشــر.. ولكن القانون لا يصنع البـشر، البشــر هم المرجع وهم صناع القانون.. والناس زى ما أنت شـايف فرحانة وسعيـدة.. هل تأتى الحكومة وتعكنن عليـهم؟ بوصــفى عـضــوا بمجلس الشــورى يا حـضــرة

الضابط وبما أن مهمتى تقديم المشورة لذلك أنا أشير عليك بالعودة للقسم فورا.

غلت الدماء فى عروق الضابط، شعر برغبة قوية فى القبض على عضو مجلس الشورى ولكنه تذكر فجأة أنه محصن ضد القبض وضد الحريق وضد البرد وضد الإفلاس وضد الخوف وضد الألم وضد الطرد وضد الفصل وضد الاستقالة وضد الإقالة وضد الشعب. وهنا لمح الضابط جوزة تتحرك فى ركن بعيد والنار تتألق فوق الحجر، فأشار لرجاله فقبضوا على اثنين وشحنوهما فى البوكس وانسحبوا من الفرح عائدين إلى القسم.

بعد لحظات كان العضو النائب فى القسم يطلب مقابلة الضابط المسئول، بينما اجتمع أهل الفرح خارج القسم. بعد أن انتهى الضابط من كتابة المحضر مع الزبونين وضعهما فى الحجز وسمح للعضو بمقابلته.

– لماذا قبضت على هذين المتهمين؟

– كانا يدخنان الحشيش فى الفرح وقد اعترفا بذلك فى المحضر ووقعا عليه بدون إكراه.

– هل معك أمر من النيابة بالقبض عليهما؟

– لا.. كان من المستحيل أن أراهما يحششان فى الفرح ثم انصرف دون أن اقبض عليهما.. هذا هو واجبى.

– واجبك أن تقبض على المواطنين لمجرد أنهم يحششون فى فرح؟.. هذا فرح ومن حق أى أنسان فى الفرح أن يفرح، المواطن الأول عاطل، الحشيش يجعله ينسى أنه عاطل وبذلك يوفر على الحكومة مشقة أن تجد له عملا وهكذا تختفى مشكلة البطالة.. والآخر نقاش من حقه على الدولة أن يكون مزاجه عاليا لكى يبدع

فى رسومه ونقوشه.

- كل هذا جميل ولكن من الأفضل أن يقوله المحامى فى المحكمة.

- طب خلاص.. أنا حاتصرف.. دلوقت عايز حضرتك تفرج عنهم.

- الصبح هايترحلوا على النيابة.. النيابة حاتتصرف فيهم.. الليلة دى هايناموا فى الحجز.

- لا.. مش ها يناموا فى الحجز.

- أمال ها يناموا فين؟ مفيش فى القسم حتة تانية يناموا فيها.. أنا شخصيا بانام على الكنبة دى.. وزى ما أنت شايف حضرتك ضيقة جدا.. ماتكفيناش إحنا التلاتة.

- يا حضرة الضابط.. مفيش داعى تستفز السلطة التشريعية.. ماتزعلنيش.. أنا زعلى وحش.

- يا حضرة النائب أنت لا تدرك المتغير فى المجتمع المصرى، كان ضابط الشرطة لسنوات مضت يخشى النقل إلى مكان ناء.. كان يخشى الاصطدام بالأكابر خوفا من إيقاف ترقيته.. الآن هو ليس مهددا بذلك.. بل بالقتل.. طبيعة عمله تحتم ذلك.. من فضلك لا تهددنى.. صحيح أنا لست عضوا بمجلس الشورى ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أشير عليك أن تخرج من هنا الآن.

- أنت تطردنى إذن؟

- لا.. أنا أطلب منك فقط العودة إلى الجماهير التى انتخبتك لأنها فى حاجة إليك.. من فضلك سيبنى أنا تعبان وشغال من أول امبارح.

وهنا خرج مشير الشوارجى إلى الجماهير المحتشدة وألقى

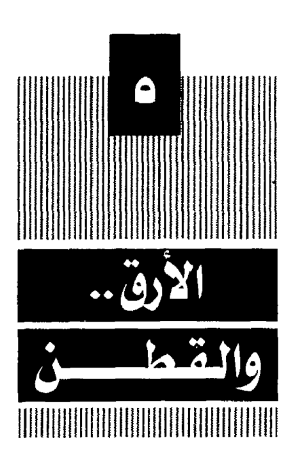
بالخطاب التالى:

أيها الأخوة المواطنون هذا هو عصر التحريض. لو أننى كنت أعمل فى جريدة قومية لقمت بتحريضكم ضد الغرب الإمبريالى. ابن الكلب، ولو أننى أعمل كاتبا فى جريدة معارضة لقمت بتحريضكم على الوقوف مع صدام والبشير والترابى.. ولكنى مجرد عضو بمجلس الشورى، أنا واحد من العقول الكبيرة التى تشير على الدولة بما تفعله، ولكن القانون نفسه لا يلزم الدولة بذلك، ولذلك أنا وزملائى نحيا فى عذاب أليم، نحن نواب عن الشعب لأننا منتخبون وبعضنا معين، ولكننا غير ملزمين لأحد بشئ وبذلك تذهب إشاراتنا ومشورتنا واستشاراتنا فى الهواء، لذلك سأشير عليكم بشئ تفعلونه الآن لكى تثبتوا للعالم كله أن أعضاء مجلس الشورى يشيرون على الشعب بالفعل الصحيح وأن الشعب على الأقل فى قسم الخليفة يستجيب لهم.. أيها المواطنون، هل تعرفون من يقف فى وجهكم ويعكنن عليكم ويمنع أفراحكم ويقبض على حشاشيكم؟

الجماهير صائحة:

- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!
- هل تعرفون السبب فى تأخرنا وتخلفنا وضياعنا؟
- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!
- هل تعرفون الآن عدوكم.. من هو عدوكم؟
- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!

وهكذا تحركت الجماهير واعتدت على القسم بمشورة عضو مجلس الشورى.



كانت أدوار البناية الجديدة، التى تحتل مساحة هائلة على ناصيتين لشارعين رئيسيين ترتفع بسرعة مدهشة. وهذا راجع لحرص أصحابها على استخدام أحدث صيحات التكنولوجيا فى صب الخرسانة المسلحة. عدة خلاطات أسمنت عملاقة، أشبه بسفن الفضاء الكبيرة، محملة على شاحنات عملاقة، كانت تقف فى الشارع بعد منتصف الليل وتضخ خلطة الأسمنت والرمل والزلط فى مواسير تصل إلى الأدوار العليا المراد صبها. اختفى إلى الأبد مشهد العمال الذين يصعدون السقالات، حاملين «قصعة الأسمنت» وهم يغنون أغانى العمل الجميلة فى إيقاعات قوية وعذبة، تعينهم على عملهم الشاق وحلت محلها أصوات المواتير العملاقة، التى تكاد تصم الآذان.

بالطبع كانت الأصوات المنبعثة من الموقع، تحرم عدداً كبيراً من

البشر من النوم، وذات ليلة استدعى أحد الجيران شرطة النجدة، ثم ارتدى ملابسه ونزل ليقف فى موقع البناء، ولم يكتف بذلك، أخذ يزار زئيراً تفوق على ضجيج الخلاطات وهدير مواتير الضخ، أخذ يصيح فى انفعال: من تظنون أنفسكم؟ لماذا لا تعملون نهاراً؟ بعد لحظات سوف أرغمكم على احترام مشاعر الناس، حالاً ستأتى شرطة النجدة لتذكركم بسلطة القانون فى هذا البلد.

أخذ الرجل يصيح بعبارات من هذا القبيل، بينما استغرق العاملون جميعاً فى العمل، وكأنهم لا يسمعون شيئاً. وفجأة ظهرت سيارة شرطة النجدة ونزل منها ضابط شرطة شاب، من الواضح من حماسته أنها كانت مأموريته الأولى بعد تخرجه، قال بطريقة خطابية وصراحة: هذه معركة وليست موقع بناء .. هل تبنون السد العالى؟.. أين الشاكى؟

على الفور تقدم منه رجل نحيل وقال: أنا هو يا فندم.

واحد من العاملين الشباب تقدم منه هو الآخر فى ترحيب: أهلاً وسهلاً يا فندم.. تحت أمرك.

– أنت مين؟

: انا مسئول الخلاطات..

– ماذا أفعل بك يا مسؤول الخلاطات؟ من فضلك استدع لى أكبر مسؤول فى الموقع.. أنتم ترتكبون جريمة .. النوم حق من حقوق الإنسان. آلاف البشر من جيرانكم لن يقوموا بأعمالهم فى الصباح على الوجه الأكمل، لأنكم حرمتموهم من النوم.. فكروا فى المرضى، فكروا فى الطلبة الذين يحلمون بالهدوء لكى يذاكروا

دروسهم.. فكروا فيما ستخسره البلد من جراء ذلك..

: يا فندم فرصتنا الوحيدة هى العمل بعد منتصف الليل، هذه السيارات والخلاطات العملاقة ستوقف حركة المرور تماماً إذا اشتغلنا نهاراً.

– من أنت؟

: أنا الملاحظ..

– روح هات لى رئيس الموقع المسؤول.

: هو نائم الآن يا فندم..

– نعم! نام بعد أن حرم سكان المنطقة من النوم؟.. روح صحيه وإلا سأوقظه أنا بطريقتي..

قال الملاحظ لواحد من زملائه: خلاص.. روح صحى له سعادة الباشا.. سعادة اللواء السلحدار..

قال الضابط باهتمام: من تقصد باللواء السلحدار؟ هل تقصد الرئيس السابق للإدارة العامة لـ ..

: نعم، هو بعينه.. لقد خرج إلى المعاش منذ شهرين، وهو يعمل الآن مديراً لشركة البناء صاحبة هذا الموقع..

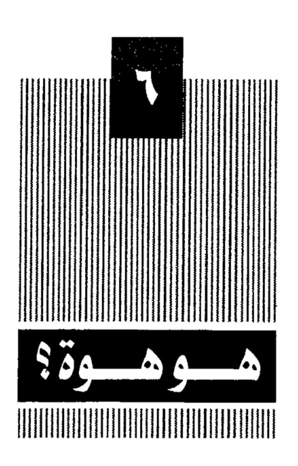
– أنا أعرفه جيداً.. ولا أعتقد أنه سيرضى بما يحدث أنا واثق أنه أعطاكم أمراً بأن تعملوا دون أن تحدثوا ضجة مقلقة للراحة، عموماً لا توقظه.. سأتفاهم معه فى الصباح..

قال ذلك والتفت إلى الشاكى، وقال له: هناك أمر يحيرنى منذ أن تلقيت هذا البلاغ.. بماذا تفسر أن كل سكان المنطقة ينعمون الآن بالنوم الهادىء ماعدا سيادتك؟ هل أنت واثق أن ضجيج

العمل فى هذا البناء العظيم الجميل هو السبب فى عجزك عن النوم؟ ابحث يا رجل عن الأسباب الحقيقية، التى سببت لك الأرق؟ أليس من الجائز أنك ارتكبت شروراً عديدة أثناء النهار عذبتك ليلاً وحرمتك من النوم؟ أم هو الحقد على الناجحين البنائين؟ ألن تكفوا عن تعطيل حركة البناء فى المجتمع؟ ما رأيك فى أن تأتى معى إلى القسم الآن لتدلى بأقوالك فى محضر عن الأسباب الحقيقية التى دفعتك لهذه الشكوى؟!

أجاب الرجل وهو يرتعش: يبدو يا باشا أننى تسرعت فى البلاغ.. كان من الممكن أن أضع قطعتى قطن فى أذنى وأنام.. ولكن للأسف ليس لدى قطن..

– وهل هناك إنسان متحضر لا يوجد فى بيته قطن؟ اتفضل، هناك صيدلية فى أول الشارع، هات منها قطناً وضعه فى أذنيك وروح نام.. تصبحوا على خير يا جماعة.



٦

هــــوهــــوة؟

أصدرت محكمة فى أدنبرة حكمها بالإعدام على كلبة، لأنها «هوهوت» على ساعى البريد، استأنف أصحاب الكلبة الحكم لقسوته الشديدة، ثارت جمعيات حقوق الحيوان وعلى رأسها فنانة الإغراء المعروفة «بريجيت باردو».. انتهى الخبر، والباقى كله من عندى. بعد سماع الخبر بلحظات رن جرس التليفون، رفعت السماعة جاءنى على الفور ذلك الصوت الأنثوى الناعم الذى أعرفه جيداً، رددت وقد بدأ قلبى ينبض بقوة: أهلاً.. أهلاً.. والله زمان يا بريجيت.. كيف حالك؟

- لو كان حالى يهمك لسألت على..

■ الفتنة نائمة يا صديقتى، لا أريد إشعال النيران القديمة، كلانا تقدم فى السن إلى الدرجة التى تمنعنا من الحصول على زماننا وزمن غيرنا.. تحت أمرك يا عزيزتى.. اؤمري.

- أريدك أن تتوجه فوراً إلى اسكوتلاندا للدفاع عن كلبة مظلومة، أريدك أن تعرف منها الظروف التى دفعتها «للهوهوة» على ساعى البريد (عدد قليل جداً من القراء يعرف أننى أجيد فهم الكلاب)، لقد حكمت عليها محكمة درجة أولى بالإعدام، من المحتم إلغاء هذا الحكم الجائر فى الاستئناف، مذكرتك ستكون مهمة للغاية فى الدفاع، لا أريد أن أسمع منك أعذاراً، لقد أرسلت لك تذكرة الطائرة بالفاكس..

■ يا صديقتى القديمة، أنا منشغل الآن بالدفاع عن البشر.

- سيجد البشر دائماً من يدافع عنهم..

■ ليس دائماً يا عزيزتى.. فى منطقتنا الدفاع قوى جداً عن الكلاب فقط.

- يا عزيزى، دعك من الفلسفة.. أستحلفك.. من أجل حبنا القديم أن تتوجه فوراً إلى المطار.

من المعروف أن الكلاب فى العالم المتحضر، لا «تهوهو» على المسالمين، هى «تهوهو» فقط على المهاجمين وأصحاب النوايا السيئة، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم، ستجد بشراً كثيرين يهوهوون عليك لترويعك على سبيل التسلية.

فى مطار أدنبره كانت هناك سيارة فى انتظارى، توجهت مباشرة إلى الإدارة المركزية لحجز الكلاب، آلمنى أن أرى كمامة حمراء موضوعة فى إحكام على فكى الكلبة، طلبت منهم خلعها فشكرتنى بنباح خافت لطيف، سألتها: هل ضايقك ساعى البريد؟ هل يذكرك وجهه بحيوان أو شخص آخر تكرهينه؟ هل كانت

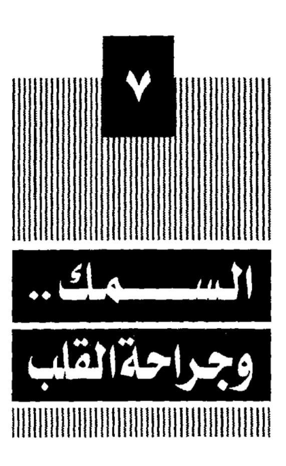
ترتسم على وجهه تكشيرة آدمية مستفزة؟ لماذا «هوهوت» عليه لدرجة أشعرته بالفزع؟

قالت الكلبة: هذا الرجل شرير لدرجة لا يمكن تصورها، لشهور طويلة كان يأتى يومياً بخطابات يسلمها لأصحاب البيت، لاحظت أنه بعد انصرافه بلحظات كانت تدب فى البيت خناقة فظيعة بين الزوج وزوجته، كانت تصل إلى التشابك بالأيدى، فى كل مرة كان الرجل يسلمهما خطاباً كان يحيل حياتهما لجحيم، إذاً هو رجل شرير. أنا أكره ذلك الجو المتوتر المشحون بالغضب والخصام، الذى بسببه كف أصحاب البيت عن ملاطفتى والعناية بطعامى ونظافتى، كانوا يعيشون فى نكد دائم بسبب هذه الخطابات، التى يأتى بها هذا الرجل الشرير يومياً. أنا أعرف بالطبع أن «الهوهوة» فى غير وقتها أو محلها سلوك غير متحضر، ولكن ماذا كنت أفعل دفاعاً عن حياتى وعن حياة أهل البيت، الذين أنا مكلفة أصلاً بحراستهم من كل سوء؟ ومع ذلك أنا لم أقفز عليه، لم أعضه، ولا حتى خربشته، لقد اكتفيت على سبيل الإنذار والتنبيه بالتكشير عن أنيابى والزمجرة الخفيفة المصحوبة بهوهوة معقولة. ولكن اتضح أنه ليس شريراً فقط، بل هو رجل «عيل» بدليل أنه عمل عقله بعقلى ورفع قضية، ليتنى كنت مزقته تمزيقاً لكى أستحق حكم الإعدام فعلاً.

قلت لها مواسياً: يا عزيزتى.. ناقل الشر ليس بشرير، هو لا يصنع الخطابات بل يوصلها فقط، هذه الخطابات على الأرجح كانت فواتير أو إشعارات من البنوك، تطالب بديون مستحقة

للغـير، من الواضح أن ظروف أصـحابك المادية سـيئـة، لذلك هم يتشاجرون يومياً، هذا الرجل كـان يؤدى واجبه لا أكثر. صدقينى ليس فى اسـتطاعـته أن يأتى لهم بخـطابات مفـرحـة تبعـد عنهم الشجار.

فى مرافعتى أمام محـكمة الاستئناف أثبت الدوافع النبيلة وراء «الهوهوة»، وحصلت على البراءة، كمـا حكمت المحكمة بتعيين كلب شرس مرافق لساعى البريد، للرد سريعاً على أى «هوهوة» تحدث من كلاب المنطقة التى يوزع فيها البريد.



البرنامج التليفزيونى عن أهل القمة، والحديث عن واحد من أشهر جراحى القلب فى العالم، وهو الدكتور «مجدى يعقوب»، الذى يعيش فى لندن، استضاف المذيع عدداً من تلاميذه ومساعديه، تكلموا عنه كلاماً جميلاً فى إجلال. أمر طيب للغاية أن يعرف المشاهدون أن النجومية لا تقتصر على أبطال المسرح والسينما والطرب وكرة القدم.

وترك المذيع الأستديو ونزل بالكاميرا إلى الشارع ليسأل الناس عن الجراح الشهير؟ تصورت أن الأسئلة ستكون من نوع: لماذا ينجح بعض الناس من منطقتنا نجاحاً ساحقاً فى عواصم الغرب؟ وما الأسباب التى دفعته للسفر إلى هناك؟ هل هى روح المغامرة؟ أم المضايقات؟ أم القرف؟ ولكن المذيع سأل الناس فى الشارع سؤالاً لا يخطر على البال: ما عدد العمليات الجراحية التى

أجراها الدكتور «مجدى يعقوب» فى حياته؟

عدد كبير من البشر أجابوا: ما نعرفش

قالوها وهم ينظرون إلى الكاميرا بخجل ووجل. وكأنه من العار ألا يعرف المواطن عدد هذه العمليات. آخرون جربوا حظهم بذكر أى رقم يأتى على بالهم ٢٠، ٣٠، ٤٠، ٢٠٠، ٥٠٠، ألف، وفى كل مرة تأتى الإجابة خاطئة، وأخيراً ينتقل المذيع إلى محل سمك مشهور فى حى المهندسين، ويسأل المعلم صاحب المحل (سنلاحظ أن الكاميرا حرصت على تصوير المعلم صاحب الوجه المعروف لكل آكلى السمك فى الشرق الأوسط وفى الخلفية أسعار السمك المشوى والمقلى والطواجن).. وجه إليه المذيع نفس السؤال ففكر المعلم قليلاً ثم قال: ١٤٥٠ عملية..

فقال المذيع مشجعاً: قربت شوية.

وهنا قال المعلم فى ثقة وكأنه تذكر فجأة: ١٦٠٠ عملية.

فرد المذيع وقد انفرجت أساريره: بالضبط .. هى (١٦٠٠ عملية).. تكسب.

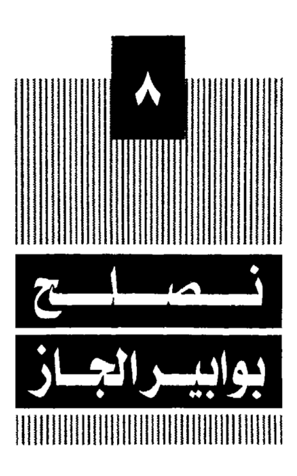
وأعطاه جنيهاً ذهبياً.

أعرف أن نابليون قال: النجاح فى حاجة لقدر من الدجل (بونابرت فى مصر) ولكن حتى الدجل فى حاجة لقدر كبير من الإتقان والتعب، كان يجب على المعد أن يبذل مجهوداً فى إدارة الحوار، بحيث نصدق أن المعلم يعرف الرقم الصحيح فعلاً، بعد أن أجاب وقبل أن يتسلم الجنيه الذهب، كان على المذيع أن يسأله: مدهش يا معلم .. كيف عرفت الرقم الصحيح؟

فيجيب المعلم مبتسماً: الدكتور «مجدى» من زبائنى منذ أن كان طالباً فى كلية الطب، وعندما ينزل إلى مصر يأتى من المطار على هنا على طول، وأحياناً ينزل مصر ترانزيت وهو فى طريقه لعاصمة أخرى، فيطلب منى السمك بالفاكس من لندن فأقابله به فى المطار ساخناً .. هل أدلك على سر .. هو يقول أن سمكى هو السبب فى ذكائه الحاد، بالصدفة سألته الأسبوع الماضى عن عدد العمليات الجراحية التى أجراها فى حياته فأجابنى .. هكذا عرفت الرقم.

هنا يأخذ الجنيه الذهب بعد أن صدق المشاهدون أنه يستحقه، ومن المستحسن أن تنتقل الكاميرا إلى عيادة الدكتور «مجدى» فى لندن، أو يسأله بالقمر الصناعى توفيراً للنفقات: دكتور مجدى يعقوب.. ..بوصفك واحداً من أشهر جراحى القلب فى العالم.. نريد أن نعرف منك كم عدد أطنان سمك البورى التى تستخرج يومياً من بحيرة البردويل؟

ياجماعة خفوا علينا شوية.. حرام عليكم.



الجيل الحالى لا يعرف بوابير الجاز «البريموس»، التى كانت تعمل بالكيروسين. كان وابور الجاز الأنيق بخزانه النحاسى اللامع، وأطرافه الحديدية الثلاثة، وعدته المزعجة أو الساكتة، وكبّاسه الذى يضغط الهواء بداخله، كان يمثل درجة من الرفعة الاجتماعية، فى وقت كان فيه عدد كبير من البشر، عاجزين عن شراء هذا الوابور، وكانوا يستخدمون موقداً بدائياً يسمى (الكانون) يعمل بالحطب.

كانت مزاياه كثيرة وسيئاته أكثر فقد كان السبب فى وفاة أسر بأكملها استخدمته كوسيلة للتدفئة، فاستولى عليها النعاس سريعاً، بسبب صوت (الوش) الرتيب الهادئ، وفجأة تنسد (الفونيا) وهى ذلك الجزء الصغير، الذى يحتوى على ثقب يسمح

بمرور الكيروسين، فينطفىء الوابور ويتحول الكيروسين إلى غاز خانق، عند اصطدامه بالعدة الساخنة، ومن أضراره أيضاً أنه كان خفيف الوزن، ويمكن تحويله بسرعة إلى أداة مشتعلة للضرب، خصوصاً عندما يفقد الزوج أعصابه، ويبحث عن أقرب شىء، فى متناول يده، ليتفاهم به مع أم عياله. ولكثرة أعطاله كان لابد من ازدهار صناعة (إصلاح البوابير).. هكذا كانت أشهر صيحة فى الحارات والشوارع هى: (نصلح وابور الجاز).. أذكر فى ذلك الزمن البعيد، أنه ظهرت نكتة تقول: إن اثنين من هؤلاء، كانا يجوبان الحوارى، وهما مسطولان تماماً، فكان أحدهما يصيح: نصلح وابور الجاز، وكان الآخر يهمس فى حارة أخرى: وأنا كمان.

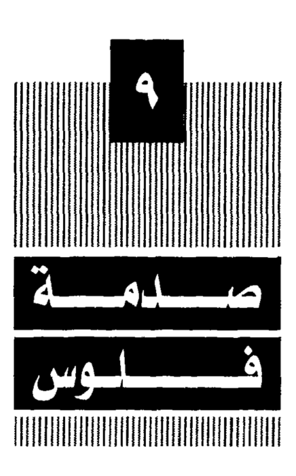
ولأن شيئاً لا يبقى على حاله، ظهر فجأة جهاز البوتاجاز الشهير، فاختفت البوابير واختفت تلك الصناعة المزدهرة، التى كان يعمل بها آلاف البشر، فى طول البلاد وعرضها. أرجو ألا تتصوروا أن الحنين إلى الماضى هو الذى جعلنى أتذكر هذه البوابير، فأنا شخصياً كنت أشعر نحوها بكراهية شديدة، ولكنى فوجئت منذ عدة أيام بإعلان صغير يقول إن «الاتحاد العام لبوابير الجاز»، سيعقد اجتماعاً مهماً، فى قاعة معروفة، وأن أعضاء عديدين فى أحزاب وجمعيات مهمة، مدعوون لحضور هذا الاجتماع، دفعنى الفضول للتسلل إلى هذا الاجتماع، ورأيت عجباً.. مجموعة كبيرة من البشر، تخطوا التسعين من أعمارهم، يتحركون

ويتكلمـون ويتصـايحون ويهـتـفون فى قـوة وحيـوية، وانطلقت الشعارات مدوية فى القاعة: نصلح بوابير الجان، كدة تسليك وكده توليع، الدنيـا فونيـا والزمن كبّاس.. ثـم صعد إلى المنـصة الأمين العـام للاتحاد وبدأ خطابه: أيهـا الســادة، اجتـمعنا اليـوم لنعـيد أمـجاد الماضـى.. اجـتمـعنا اليـوم فى ظل ظروف تاريخـية بالغـة التعـقيـد، لنعلن أن مهنتنا لم تمت، وأنه فى الغـد القريب سـيذهل العـالم، عندمــا يرى المـواطنين الأشـراف، وهم يلقـون بأجـهـزة البوتاجازات إلى مزابل التـاريخ، وأن وابور الجاز عاد مرة أخرى لاحــتـلال المكانة اللائقـة به فى كل بيت، مـرة أخـرى سيـسـمع ويستمتع الملايين بصيحاتنا فى الشوارع والحوارى: نصلح بوابير الجاز.

لقد سكتنا طويلاً إلى أن تجمعت فى أيدينا الوثائق، التى تؤكد أن ظهـور البـوتاجـاز كـان مـؤامـرة من أصــحـاب الاحـتكارات الامبـريالية العالميـة، للقضــاء على هويتنا وصناعتنا، غـير أننا لن نسكت وسنوضح لكل المواطنين أبعـاد هذه المؤامرة الدنيـئة، كـما سنكشف بالوثائق كل النتائج، التى توصلت إليهـا مراكز الأبحاث العلمـيـة، وهى أن الطعـام المطهـو على البـوتاجـان، غيـر صـالح للاستهلاك الآدمى، وأن النيران الهادئة اللطيفة المنبعثة من وابورنا العـزيز، هى القـادرة فـقط على إنـضـاج الطعـام بشكل صـحى، سنكشف بالوثائق أن كل الأمراض الغريبـة، التى لم تكن معروفة فى بلادنا، هـى من صنع هذا البـوتاجـاز اللعين.. ولنكن صرحـاء،

ألم تكن الناس أكثر صحة ونشاطاً أيام الوابور؟ ألم تكن هذه الأمة أفضل حالاً؟ ألم يكن البوتاجـاز - يا سادة - هو الذى مهد لظهور الثلاجات، التى تجرد الطعام من الفـتيامينات؟ ألم يترتب على ذلك ظهـور أجيـال مصـابة بفقـر الدم والانيـميـا؟.. ثم جاءت الطامـة الكبرى.. جهاز الميكروويف.. إننى أحذر.. الخ.

وخرجت من الاجتـماع وأنا أردد فى نفسى: يا إلهى.. ألن تكف الامبريالية العالمية عن إلحاق الأذى بنا؟.. وكمان ميكروويف؟!



عامل وسائق يعملان فى منطقة الصاغة عند أحد تجار الذهب قررا أن يسرقا خزينة صاحب المحل فى لحظة طمع ورغبة محمومة فى الثراء السريع. كانت الخطة بسيطة ومحكمة، أن تختفى مفاتيح صاحب المحل لعدة دقائق حتى يتمكن السائق خلالها من صنع نسخة أخرى لها، وبعد أن ينصرفا من المحل يتسللِ السائق عائداً إلى المحل فيفتحه ثم يفتح الخزينة ويأخذ ما بها من أموال ثم يعيد إغلاقها ثم يغلق المحل ويلتقيان فى بيت العامل فى حى روض الفرج، وكان الشق الثانى من الخطة يقضى بأن يدفنا المبلغ فى مكان بعيد حتى تنتهى تحقيقات الشرطة والنيابة، فبالقطع سيتم الاشتباه فيهما، كل المطلوب منهما هو الصمود وعدم الاعتراف بالسرقة مهما حدث.

خطة محكمة تماماً فلن يتركا أثراً من أى نوع، وهذا ما حدث

بالفعل، أخرج السائق حوالى مائة ألف جنيه من الخزينة ووضعها في حقيبة ثم أغلق الخزينة بالمفتاح كما أغلق باب المحل وانصرف ولا من شاف ولا من درى.

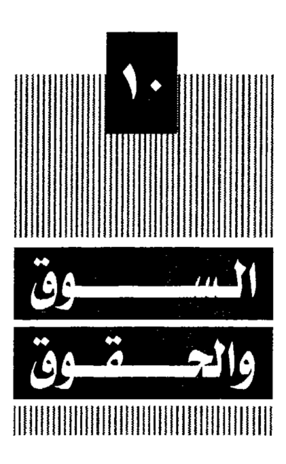
ذهب إلى بيت زميله الذى يسكن هو وزوجته غرفة وحيدة ضيقة، فى منطقة فقيرة ذات كثافة سكانية عالية، وعلى سبيل الاستعراض فرحاً بإنجازه، أغلق السائق باب الغرفة خلفه وأمام صاحبه وزوجته أخرج الفلوس من الحقيبة ووضعها على الأرض فى منتصف الغرفة فبدت وكأنها جبل صغير. وهنا حدث أمر غريب سوف يحار فى تفسيره علم النفس، نظرت الزوجة إلى المبلغ على الأرض واندفعت تصرخ صرخات هستيرية مروعة. قفز عليها الزوج محاولاً كتم فمها أو حتى كتم أنفاسها غير أنه فشل وظلت هى مندفعه فى الصراخ والصويت. فى أقل من دقيقة اندفع الجيران وسكان البيت والبيوت المجاورة وحتى من الحوارى المجاورة للتعرف على مصدر الصويت وسببه. شاهد الجيران الزوج وصديقه وجبل الفلوس على الأرض بينما الزوجة مستمرة فى الصويت الهستيرى وكأنها توفر للمشهد مؤثرات صوتية قوية.

قرر الجيران على الفور اصطحاب الثلاثة والفلوس إلى أقرب نقطة شرطة فقد أدركوا على نحو غريزى أن هذا المبلغ مصحوباً بهذا الصراخ وراءه جريمة، ليس معنى ذلك أنهم ضد الجريمة بوجه عام ولكنهم بالتأكيد ضد الجرائم التى يغتنى فيها واحد منهم فقط، وفى الطريق إلى قسم الشرطة كانت الزوجة مازالت

تصـرخ صرخـاتها الـهسـتيـرية، وفى قـسم الشرطة تمكن أحـد الضباط بطريقة ما من إسكات الزوجة. وبدأ التحقيق، كانت أسهل قضية سرقـة فى حياته، فقد كان الإنكار مستجـيلا، كما كان من المستحـيل نظراً لوضعهمـا الاجتماعى أن يزعـما أنهما كـسبا هذا المبلغ في البورصـة مثلاً فـقد حدث ما يجـعل الاعتراف بالسـرقة أمراً لا مـفر منه فبـعد وصول القـافلة إلى قسم الشـرطة بدقائق حضـر تاجر الذهب ليـقدم بلاغـاً بأن لصوصاً سـرقوا خـزينته، وبتفـتيش السائق عثـر معه على المفاتيح المصطنعـة. من المؤكد أن هذين اللصـين هما أسوأ اللصوص حظاً فى التاريخ، ولكنى منشغل بأمـر آخر، لماذا انهـارت الزوجة وصـرخت هذه الصرخـات التى أفسدت الأمر كله وقادت زوجها وصديقه إلى السجن؟

هل هو نوع نادر من الصدمات تسمى صدمة الفلوس؟ هل هى كانت منشغلة بخطة خمـسية للعثور على خمسـة جنيهات وعندما تملكها اليأس فوجئت بجبل الفلوس هذا؟ أم أن المسكينة أدركت أن هذا المبلغ بغض النظر عن مصـدره سيكون دافعاً لزوجـها للزواج من أخرى وإلقـائها فى الشارع؟! فتـحولت الفلوس فى لحظة إلى تجسـيد حى لما ستلقـاه من ضياع وشـقاء خالـقة بذلك لحظة من الألم عجزت عن تحملها؟!

الله أعلم.



١٠ السوق والحقوق

ازدحم السوق بالبشر، علت أصوات الباعة تمتدح بضاعتها وتتبادل أحاديث لطيفة مع الزبائن. الخضراوات ندية طازجة وكأنها قُطفت من حقولها منذ لحظات، الفاكهة لامعة تبرق، كل شيء كان ينبض بالحياة وفجأة استمعنا إلى ما يشبه المشادة بين بائع وربة بيت، صاحت السيدة: اعطني حقى..

رد عليها البائع بصوت مرتفع أذهل كل من فى السوق واسكتهم تماماً، صاح الرجل: ليس للمرأة حق حتى يُعطى.

ساد الصمت السوق وكأنه تحول إلى صحراء ساكنة، وتقدم رجل عجوز يرتدى ملابس غريبة أقرب إلى أن تكون إغريقية قديمة، كانت ملامح وجهه لطيفة وصلعته أكثر لمعاناً من الفاكهة، قال بابتسامة عذبة وصوت رقيق: عفواً، فأنا غريب واسمى سقراط، ماذا تقصد بكلمة المرأة، هل تعنى أنثى الإنسان؟

- نعم.

■ هى إنسان إذاً.. لا أصدق أنك تقصد أن تحرم إنساناً من حقه، فمعنى ذلك أنك تطالب بحرمان نفسك شخصياً من حقوقها، وأنا لا أتصور أنك تقصد ذلك، فلم أعرف إنساناً من قبل طالب بأن يُحرم من حقوقه.

تجمع كل الباعة والمشترين حول البائع وسقراط يستمتعون فى صمت وترقب بتلك الندوة الثقافية المفاجئة عن حقوق الانسان، قال البائع: لا.. المرأة فقط هى التى تُحرم من حقوقها. هذا ما أقصده.

سقراط: وماذا عن الأطفال، صبيان وبنات، أقصد أطفالك، أليس لهم حقوق؟ وهذه الحقوق ستعطيها لهم أمهم وهى طبعاً امرأة، ستعاملهم بلطف وحنان، وتربيهم، وتغذيهم وتعلمهم كيف يواجهون الحياة بطريقة تجعلها أكثر عدلاً وانتاجاً وجمالاً.

البائع: نعم.. نعم، هذا هو حقهم عليها.

سقراط: جميل، طبعاً أنت تعرف أن فاقد الشىء لا يعطيه، من المستحيل أن تعطينى بطاطس أو طماطم إلا إذا كانت موجودة عندك، كيف تتصور إذاً أن شخصاً حرم من حقوقه سيعطى الآخرين حقوقهم، معنى ذلك أنك تصادر على حق أولادك فى أن يتربوا تربية حسنة ويكونوا بشراً صالحين، أنا لا أعتقد أنك تفضل أن يصبح أولادك ذئاباً بشرية شرسة.

البائع: لو تطلب الأمر سأربيهم بنفسى لكى لا يتحولوا إلى ذئاب.

سقراط: ستقبع فى البيت اذاً.. يعنى ستحرم نفسك من أهم حقوقك كرجل وهو حق العمل، لأنك لن تجد وقتاً لتعمل، وبالتالى لن تجد ما تنفقه على أولادك، هل أفهم من ذلك أنك ستسمح لأم أولادك بأن تعمل هى لتنفق على البيت؟ هذا معناه أنك تعترف بحقها فى العمل، صدقنى أنت تتناقض مع نفسك ولعل السبب فى ذلك هو أن لديك مشاكل مع المرأة عجزت عن حلها، وهذا أمر شائع، أنا شخصياً عجزت عن حل أى مشكلة مع زوجتى.

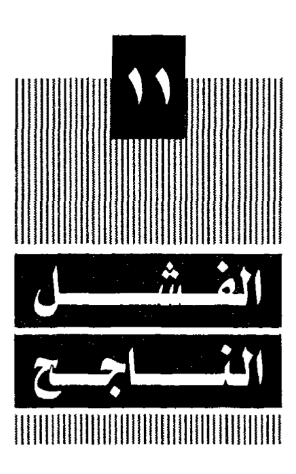
صاح البائع بأعلى صوته: مازلت مصراً على أن المرأة لا حق لها.

فى تلك اللحظة حدث أمر غريب، ظهرت سيدة حدجت البائع بنظرات نارية وصاحت بحزم: ماذا تقول يا زوجى العزيز؟

فقال البائع فى رعب: أقصد الحقوق السياسية.. السياسية.. السياسية..

فقالت المرأة فى صرامة بصوت أقرب إلى الهمس: طب قدامى.. قدامى.. قدامى على البيت.

وعاد الناس إلى الشراء والبيع.



١١
الفشل الناجح

كان رحمه الله سريع الحركة، زائد النشاط قادراً على حل أى مشكلة تثور بين العاملين، كان يعمل منتجاً مسرحياً ويتسم بدرجة عالية من الدبلوماسية والتهذيب، لم يحدث أن عجز عن حل أى مشكلة، لذلك كان من المستحيل أن تصل خلافاته مع الآخرين إلى حد الصدام، ساعده على ذلك أن حقيبة سيارته كانت ممتلئة دائماً بعدد كبير من الهدايا.. قطع صوف.. قمصان.. فلوس.. سجائر وأشياء أخرى لها أهميتها فى عالم الفن والفنانين فى وقت كان من الصعب فيه العثور فى الأسواق على سلعة مستوردة.

كان من السهل عليه العثور على ممول غنى لتمويل مغامراته الإنتاجية بنفس السهولة التى تعثر بها على كشك سجائر ومع كل ذلك فقد كان الفشل حليفه فى أكثر من تسعين فى المائة من أعماله المسرحية، أولاً هو يصطاد الممول، يسحب منه ما يريد من أموال، ينفق منها عشرات الألوف فى إعداد مسرح جديد وعشرات

الألوف الأخرى فى عملية الانتـاج المسرحى الذى يتضح فشله فى ليلة العـرض الأول، تمر عدة أيام عصـيبـة مليئة بالتـوتر من أجل إنجاح العـرض المسرحى، ولكن كل الجهود تفـشل ويغلق المسرح أبوابه فمن المعروف أن العرض المسرحى الذى يولد مـيتاً لا سبيل مطلقاً لإحيائه.

ويبكى المـمـول أمواله التى ضـاعت، ويبكى أيضـاً الديون التى سيدفعـها للممثلين ولوكالات الإعلانات ولبقـية العرض المسرحى، وتكون الاجـابة الوحـيـدة من صديقـنا المنتج هى: حاعـمل لك إيه يا حبيبى.. خسرنا .. الحـياة مكسب وخسارة.. وآدى أنت شايف المجهود اللى عملته.

ويختفى صـاحبنا لعدة شـهـور ليظهر ومعه ممول آخـر ليقدم عرضاً مسرحياً جديداً يفشل بدوره وتضيع أموال الممول ويختفى صـاحـبنا ليظهـر من جديد ومـعه ممول جـديد وهكذا. وذات يوم حدثت له كارثة، فقد نجح العرض المسرحى نجاحاً منقطع النظير، ولأول مـرة فى تاريخه يفـرح المـمـول ويبكى هو، فـأمام المسـرح وقف طابور طويل من الدائنين السابقين، كل من له مبلغ فقد الأمل فى الحصول عليه، جاء الآن ليطالب به.

الواقع إنه بدراسة سلوكه جيداً اتضح لى أنه كان يحرص على فشل العرض المسرحى، كان يتخذ من الإجراءات والقرارات ما هو كفـيل بإفـشـاله، فـقـد كـانت هذه هـى الطريقة الوحـيدة لـلإفلات بفلوس الممول، فأثناء خـطوات تنفيذ العمل الفنى سواء كـان فيلماً أو مسـرحيـة تستطيع الحـصول على أية مـبالغ من المـمول الذى يتحـرق شوقـاً لإنهاء العـمل ولا فرصة لـدية للتدقيـق فى أوجه الصـرف، فى كل لحظة هو يدفـع ويدفع ويدفع، وأثناء عـمليـات

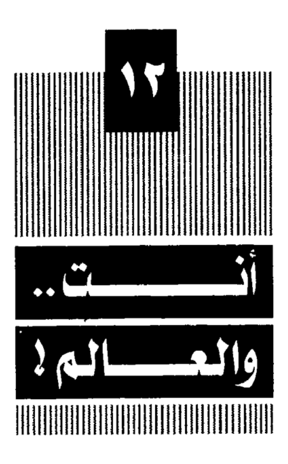
الدفع هذه كان صاحبنا يستفيد كل الاستفادة، لذلك كان نجاحه فى الإفلات بما حصل عليه يحتم أن يفشل العرض، أى أنه كان ينجح دائماً فى أن يفشل، هكذا كان نجاح العرض المسرحى المفاجىء لأسباب خارجة عن إرادته معناه أنه فشل فى أن يفشل إن صح التعبير.

وبدأ المسكين يدفع، لا سبيل إلى الهروب أو الإفلات من الجهات الدائنة فعندما يمتلىء شباك التذاكر بالفلوس فلابد أن تعسكر بجواره، وتكون النتيجة أنه يمكن العثور عليك بسهولة وإرغامك على الدفع. لماذا أحكى لك هذه الحكاية؟

أريد أن أقول لك بكل وضوح أنه لا يوجد على الأرض شخص غبى، كل البشر أذكياء، وعندما تتهم شخصاً أو مجموعة من البشر بالغباء لأنهم فشلوا فى إدارة مصنع أو شركة أو مشروع أو قيادة أمّة أو إدارة دولة فاعلم أنهم يماثلونك ذكاء، هم فقط يحققون مكاسب شخصية من خلال فشلهم العام، قد يكون هذا المكسب أموالاً وقد يكون جاهاً وقد يكون الشبع النفسى الناتج من أنهم شغلوا العالم وحيروه واحتلوا من تفكير البشر حيزاً كبيراً.

هم أذكياء وطبيعيون ولكنهم ضعفاء ومصابون بدرجة مخيفة من الأنانية تجعلهم حرباً على البشر، تستطيع أن تعرفهم على الفور عندما تجدهم يصدرون للآخرين أهدافاً معلنة بينما يعملون خفية لتحقيق أهداف أخرى إلى أن تاتى اللحظة التى يدفعون فيها الفاتورة كاملة.

الأقوياء فقط هم الذين يعلنون ما يفكرون فيه، ويعبرون عن أهدافهم بوضوح ويمشون فى اتجاه تحقيق هذه الأهداف مهما سبب لهم ذلك من متاعب.



فى الطائرة كانت المضيفة من جزيرة «سيشل»، وفى المطار كان يوجد سائق من «بلوشستان» أقلنى إلى الفندق، وعند باب الفندق انحنى لى مرحباً شاب هندى وحمل حقائبى إلى الداخل، كانت له لحية سوداء ملتصقة بالشارب فى تشكيل جميل، كان بعمامته الجميلة برتقالية اللون وملابسه الهندية الشعبية، أشبه بمهراجا خرج لتوه من الحواديت القديمة.

وفى الاستقبال سجلت موظفة إنجليزية بيانات جواز سفري، وقدم لى شاب مصرى مشروب الترحيب، وفى المطعم قدمت لى طعام الغداء حسناء من «ليتوانيا»، وعندما طلبت خدمة الغرف، ردت على فتاة سورية، وقام بتنظيف غرفتى شاب باكستانى، بالإضافة لعدة جنسيات أخرى كما لو أن شعوب الأرض أرسلت مندوبين عنها للعمل فى خدمة سيادتى.. وواقع الأمر أنه لا أحد

على الأرض يعمل فى خدمة الآخر، بل فى خدمة نفسه، كل هؤلاء البشر من كل أقطار الأرض جاءوا ليمارسوا أعظم قيمة حياتية على وجه الأرض: العمل.

كل هؤلاء البشر المنتمين لثقافات وحضارات مختلفة، أتوا لممارسة شيء واحد هو: العمل.. العمل هو الوسيلة وهو الهدف.. العمل سيدهم.. والعمل حياتهم.. تقاطيع الوجه الهادئة والابتسامة الدائمة فى غير تكلف تقطع بأنهم اكتشفوا أعظم اكتشاف على وجه الأرض، وهو أن بلاد الله هى نفسها بلاد كل البشر، وأن الجنسية الوحيدة الجديرة بالحصول عليها هى: العمل.

هذه الخضرة التى تكسو الأرض، هذه الطرق السريعة بأعلى المواصفات، هذه المبانى الفخمة أقامها هؤلاء القادمون من كل أنحاء العالم.

مر النهار سريعاً وفى المساء شاهدت ندوة فى التليفزيون، كان ضيوف الندوة من المثقفين وموضوعها «العولمة» كيف يمكن مواجهة أخطار العولمة؟

من الواضح أن الحياة العربية فى البيوت والشوارع والمصانع والدواوين وكل مجالات العمل تمشى فى اتجاه، بينما عدد كبير من مثقفى هذه الأمة يمشون فى الاتجاه المعاكس، بدافع من الرعب من الآخر وانعدام الرغبة فى التغيير إلى الأفضل.

إن رعبهم من العالم نابع من عجزهم عن التفكير العملى ورغبتهم فى الاحتفاظ بالاكليشيهات القديمة التى تحميهم أصلاً من عبء المعرفة، هم مطالبون بالدخول فى حلبة المنافسة الفكرية

مع مثقفى العالم كله، بينما هم فقط مدربون على الصياح: احترسوا.. احذروا..

احترسوا من الحرية فقد تحمل معها قيماً ضارة بقيمنا، احترسوا من القمر الصناعى، احترسوا من «الانترنت»، احترسوا من «الجات» لأنها ستقضى على منتجاتنا وسلعنا، احترسوا من حقوق الانسان لأن ذلك ضار بتماسك الوطن.. احترسوا من السلام.. احذروا الحرب.. احترسوا من هذا الكتاب.. احذروا هذه المسرحية.. وأخيراً احترسوا من العولمة لأنها ضارة بالصحة.

الانكفاء على الذات والخروج عن العالم وعلى العالم صالح فقط للأنظمة المستبدة، حيث المواطن يحسد نفسه على أنه استيقظ فى الصباح فوجد نفسه حياً، أما فى ظل حكومات ديموقراطية، فعلى الناس فيها أن تسأل أنفسها.. ماذا لدى لأقدمه لهذا العالم؟ لهذه الحضارة؟ الآخرون يفخرون بالبحث العلمى وبإنجازاتهم التكنولوجية.. فماذا لدى؟ وإذا لم يكن لدى ما أقدمه الآن فماذا أفعل وفى أى طريق أسير لكى أتمكن فى الغد القريب أو البعيد من الإسهام فى حضارة هذا العالم ولو بقدر بسيط؟

إذا كان الغرب قد بهرنا بإنجازاته العلمية، فنحن نستطيع التفوق أو على الأقل نبذل مجهوداً ملحوظاً فى مجالى الحفاظ على البيئة وحقوق الإنسان.

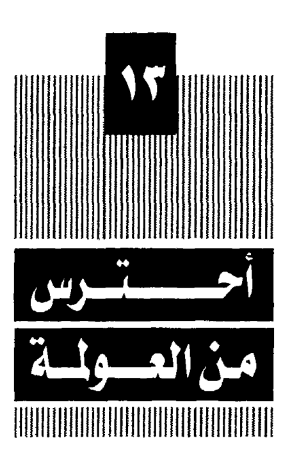
هل نستطيع الوصول.. مثلاً.. إلى مكانة مرموقة فى هذا العالم عن طريق الموسيقى؟ عن طريق الأغنية؟ لا يجب أن نترك فرصة إبداعية عالمية تمر دون أن نشترك فيها. وماذا عن الرياضة؟ إن

أكثر المشروعات ربحية هى تلك التى تستثمر أموالها فى صنع أجسام البشر القوية وتهيئة عقولهم لاستيعاب علوم العصر وترقية أحاسيسهم بالعدل والخير والجمال، وقبل كل ذلك الرغبة فى التفوق وعدم الخوف من المنافسة..

هل يتطلب الأمر إعادة النظر فى مناهج التعليم عندنا، خصوصاً فى المراحل الأولى، أليس من الجائز أن نكتشف أن مناهج التعليم عندنا تشعر الأطفال بالرعب من الآخر بل الرعب من الحياة نفسها؟ أليس من الجائز أننا نعلمهم الكسل العقلى والخوف من التفكير الحر؟

هل ننشىء وزارة جديدة، أو حتى مجرد إدارة لاكتشاف الأطفال الموهوبين وحمايتهم ومتابعتهم ومساعدتهم على مر الأعوام على المضى فى الطريق الذى تحتمه موهبتهم؟

يجب أن نحرص على الفرد الموهوب فى أى مجال وكل مجال حرصنا على الحياة نفسها، الموهوبون وحدهم هم القادرون على هزيمة الشر.



نظراته قلقة لا تستقر فى مكان، وجهه محتقن، أطرافه ترتعش، صوته فيه بحة تعسة، بحالته هذه اقتحم علينا المكان، وصاح فينا قبل أن يلقى علينا بالسلام: المنطقة كلها مهددة بخطر العولمة، وأنتم هنا قابعون فى مكانكم تناقشون قضايا لا أهمية لها.

رد عليه أحدنا فى لطف: نحن نناقش هنا قضايا مهمة للغاية: الحرية، حقوق الإنسان، الحرب والسلام، التعليم..

عاد يقول فى حدة: ما أهمية كل ذلك عندما تستولى عليك العولمة؟ وتحولك إلى إنسان متعولم، هل ضمائركم تسمح بذلك.. هل هانت عليكم أمتكم إلى الدرجة التى تستسلمون فيها للعولمة؟

– هل تسمح يا عزيزى بأن تشرح لنا ما هى العولمة التى تتكلم عنها؟.. هل هى قنبلة من نوع جديد؟.. هل هى سلاح جرثومى أو كيماوى.. هل هى نوع من الغيلان؟ نوع من الغازات أو الأبخرة الملوثة للبيئة؟

يا إلهى، هل أنتم حقيقة لا تعرفون عنها شيئا؟! إذا كنتم تعرفون فتلك مصيبة وإذا كنتم لا تعرفون فالمصيبة أعظم.

– اعف عن جهلنا.. إشرح لنا أعزك الله.

وهنا بدأ صاحبنا محاضرته بصوت فخيم: العولمة هى الخطر الداهم والشر المستطير، والمصير المظلم، العولمة هى أن يتحكم أعداء الأمة فى حاضرها ومستقبلها.. أن يخربوا ثروتها، ويقضوا على عزتها، ويضعفوا مناعتها، ويفقدوها هويتها، ويحرموها من تراثها وتقاليدها وخصوصيتها.

شعر بعض الحاضرين بالفزع وصاح أحدهم: يانهار اسود هل هذا ما ستفعله بنا العولمة؟.. لاكنا ولا كانت العولمة.. تسقط العولمة.. إلى الجحيم يا عولمة.

ردد البعض خلفه الهتافات ولكننا هدأناهم وطلبنا منهم السكوت. أحد الشبان النجباء سأل الضيف: صدقنى، حتى الآن لم أعرف منك ما العولمة؟.. ما تقوله هو صفات لها، ولكنك لم تعرفها لنا بعد.. ما العولمة؟

وهنا صرخ فيه ضيفنا واسمه بالمناسبة هو المنذر المحذر الفاضى: هى بالضبط كما وصفتها لك.. فهل ستلجأ للسفسطة حتى تضيع فرصتنا فى مقاومتها فنستيقظ ذات صباح لنجد أننا جميعاً قد تعولمنا وليعوذ بالله.. كنت أظنكم أفضل من ذلك.

قال أحد الشبان: مافهمته عن العولمة هو أن العالم كله أصبح أصغر من أن ينقسم إلى أجزاء متناحرة، وأن كل دولة على حدة لابد أن تراعى أنها جزء من هذا العالم.، وأن الجميع، فى حاجة إلى الجميع لذلك على الجميع بكامل حريتهم وإرادتهم وفى مالا

يتعارض مع مصالحهم أن يلتزموا بما يصلون إليه من اتفاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .. الخ.. وأنا لست أرى خطراً فى ذلك..

فقد صاحبنا أعصابه وصرخ وكأنه يولول: آه .. لقد حدث ما حذرت منه بالفعل .. هذا الشاب قد تعولم يا إخوانى.. أمامى الآن حالة عولمة حادة.. لست ترى خطراً من ذلك لأنك ساذج، مخك تم غسله بدعايات الغرب العولمية الشريرة.. أنا أقول لك إن الأمة تواجه أفظع خطر مر بها فى تاريخها وأنت تقول لى إنك لا ترى خطراً فى ذلك.. إما أنك عميل عولمى أو أبله..

– أنا واثق أننى لست عميلاً عولمياً.. في الغالب أنا أبله.. هل تتطوع بمساعدتى فى التخلص من بلاهتى.. ؟.. هل تسمح لى بأن أتراجع فى كلامى.. حسناً، أنا أرى الآن فى العولمة خطراً فظيعاً.. بماذا تنصحنا أن نفعل.. ولكن أرجوك.. استخدم كلمات يمكن تحويلها إلى أفعال.

: أنا سعيد لأنك استيقظت من أوهامك وتخلصت من بلاهتك وأدركت خطر العولمة .. والآن استمع لخطتى فى مكافحة أخطار العولمة .. لابد..

– يا سيدى المنذر المحذر لفاضى.. أنت تنتقل من شرح أخطار العولمة إلى طرق مكافحتها دون أن نعرف منك ما العولمة؟

وهنا فقد الأخ المنذر أعصابه وصاح: ألم أقل لكم إن هذا الشاب قد تعولم.. بعد كل هذا الشرح يسألنى فى بلادة ما العولمة؟!!... هو لا يعرفها لسبب بسيط، لأنها قد استولت عليه.

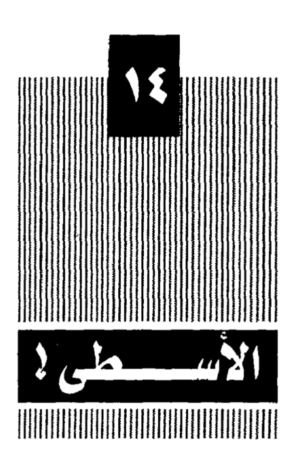
– حسناً ياعزيزى المنذر.. اتفضل اشرح لنا خطتك فى مكافحتها.

: لابد من حشد طاقة الأمة العربية كلها فى مواجهتها وذلك من خلال حملة هائلة تستخدم فيها كل وسائل الإعلام؛ من صحف، ومجلات، وتليفزيون، وسينما، ومسرح، وأغانى، ومونولوجات، ومناهج تعليم، وإقامة الندوات والمؤتمرات، لتبصير المواطنين بالمصير المرعب الذى ينتظرهم إذا استسلموا للعولمة، لابد من تشييد حصون قوية داخل أفئدة البشر، واستنباط وسائل مقاومة جديدة مبدعة وخلاقة لتحصين المواطنين ضد العولمة، فكروا معى فى شعارات تعلق على الجدران، مثلاً: «أموت ولا أتعولم»، «تعلموا ولا تتعولموا» أو صورة وحش يفتك بالبشر ونكتب عليه «العولمة» .. الخ.

واحد من الحاضرين يعمل مؤلفاً لأغانى المناسبات قال بفرحة: صحيح، أنا حتى الآن لم أفهم ما العولمة؟ ولكنى على الأقل أستطيع كتابة أغان تصلح للحملة، هل تصدقون أننى قفشت الآن مطلع أغنية جديدة تقول: حبيبى يا معلمة.. بقى كده تهجرنى، وتسيبنى للعولمة؟!

وأغنية أخرى تصلح لنزول التترات فى برناج تليفزيونى ثقافى:

الطموا صوتوا، افرحوا عيطوا.
وافتحوا المكلمة.
وانذروا، حذروا، شخبطوا، واكتبوا.
عشرة آلاف ملزمة.
وفى كل صفحة.
اشتموا العولمة..



كان السيد «سونى» رجل الصناعة اليابانى الشهير، يتحدث فى برنامج تليفزيونى أمريكى، كانت المذيعة تناقشه فى آرائه المنشورة فى كتابه الأخير الذى اتهم فيه الأمريكان بأنهم لا يجيدون علم الإدارة، وأن ذلك هو السبب الوحيد فى أن عدداً كبيراً من المصانع والشركات تغلق أبوابها.

ثم أخذ يقارن بين المصنع الأمريكى والمصنع اليابانى، وتكلم عن رئيس مجموعة العمل وكيف أنه مسؤول ليس عن إنتاجية العامل فقط، بل عن راحته فى المصنع وفى البيت، أى أنه مسؤول أيضاً عن اختيار المرأة التى سيتخذها العامل شريكة لحياته.

كان يتكلم بينما ذهنى يسرح لبعيد، لبلدتى القديمة «دمياط»، الواقعة على مصب النيل بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، كل حرف قاله السيد «سونى» كان مطبقاً على الورشة الدمياطية فى

مجال النسيج، والنجارة، وصناعة الأحذية فى نهاية الأربعينات، عندما كانت هذه المدينة الصغيرة تصدر الموبيليا والأحذية إلى كل من فرنسا وإيطاليا، بغير عولمة وبغير اتفاقية «جات»، ودون أن تكون عضواً فى الاتحاد الأوروبى، بل بفضل الاتقان وحده.

تذكرت أخطر شخصية عمالية وهو «الأسطى» الأسطى مدرسة وجامعة وأهل .. هو مسؤول عن تأهيلك للعمل، وتأهيلك النفسى والخلقى للحياة نفسها، وأى سلوك معيب للعامل لايشينه شخصياً فقط، بل يشين «أسطواته» أيضاً. وعندما يتقدم العامل إلى إحدى الأسر للزواج، فلا يكفى أن يصطحب معه أباه وأمه فقط، من المحتم أن يكون معه الأسطى الذى يعمل معه، ضماناً لأخلاقيات العامل ورجولته، هذا هو الأسطى الذى أعمل معه، والذى تعلمت على يديه تماماً كما تقول أنا خريج هارفارد أو ييل أو السوربون. وفى المشاجرات بين أصحاب الصنائع، كثيراً ما كنت تسمع كلمات، مثل: أنا أسطواتى فلان، وفلان من هم أسطواتك؟ أو لن أتكلم معك.. لك أسطى يترد عليه.

وفى عصرنا هذا عندما تجلس مع عجائز النجارين، الذين على وشك الانقراض لابد أن يقول لك أحدهم: أنا اتعلمت على يد أسطوات طلاينة أو أرمن.. ثم يبدأ فى سرد حكايات جميلة عنهم.

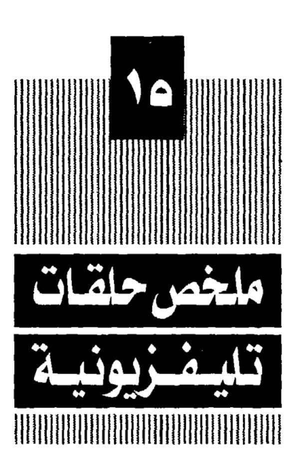
أن يرضى عنك الأسطى، هذا هو أهم شىء فى الصنعة، وهو لن يرضى عنك إلا بعد الوصول لدرجة من الاتقان لا يمكن تجاوزها. والخطأ فى الصنعة كان أشبه بالخيانة العظمى، وأكثر الكلمات قسوة هى أن تقول لعامل: «دى مش أصول شغل»، عندها

ينتابه الفزع، لأنه يعرف أن هناك أصولاً للشغل، وأن انتهاكها أو عدم الالتزام بها يعد جريمة.

من أجمل الأمور فى الحياة أن يتكلم كل منا بصدق وإعجاب عن هؤلاء الذين علموه شيئاً مفيداً، هذا يشيع فى المجتمع قدراً هائلاً من الأمانة والصدق والقوة، ويزداد الأمر أهمية عندما نعترف بأنهم كانوا على حق وأننا كنا مخطئين، ليس لكونهم أسطوات، ولكن لأنهم كانوا أبعد منا نظراً، وأوسع خيالاً وأكثر خبرة. هذا هو بالضبط ما أسعد جمهور المشاهدين عندما شاهدوا الدكتور بطرس غالى عضو مباحثات «كامب ديفيد» وهو يتكلم عن الرئيس السادات، قال: أعترف بأننا لم نكن نفهم أسلوبه فى التفاوض، ولكنه كان عبقرياً واستطاع تحقيق أهدافه السياسية، اختلافنا معه كان ناشئاً من الخوف الذى استولى علينا، لا أعرف هل كان خائفاً مثلنا أم لا ..؟

وحتى لو كان خائفاً من الفشل، إلا أنه استطاع أن يخفى عنا ذلك ويظهر دائماً بمظهر الواثق من نفسه وبما يفعل.

قائل هذه الكلمات أسطى كبير فى الدبلوماسية والعلوم السياسية، وهو كأى أسطى كبير، لابد أن يعلن إعجابه بأسطى آخر، كان أكثر منه مهارة فى موقف ما، هذه هى أصول الشغل بين الأسطوات الكبار.



الحلقات من ١ - ٥

بينما كان وحيد البهجورى يقود المظاهرة ضد الانجليز بحماسة، حانت منه التفاتة ناحية إحدى المشربيات فتمكن بعينيه العسليتين النفاذتين من رؤية العين اليسرى لإحسان فوقع فى غرامها على الفور. الموقف بالنسبة لإحسان كان أفضل فقد استطاعت رؤيته كاملاً واستمعت لهتافه: مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكن.

صوته القوى الملىء بالوطنية زلزل كيانها فأحبته حباً ملك عليها شغاف قلبها، إحسان هى ابنة عبد العظيم باشا عبد الفتاح الذى كان يعمل وكيلاً لوزارة الداخلية ويأخذ أوامره من الحكمدار الإنجليزى وكان يريد تزويج إحسان من ابن أخيه ابراهيم وهو ليس شقيقاً له بل من أم انجليزية تملك ضيعة كبيرة فى

اسكوتلاندا. تمكن وحيد بمعونة أصـدقائه الوطنيين من تدبير لقاء له مع إحسـان واعتـرف لها بحـبه وهو يبكى فبـكت هى الأخرى واعترفت له بحبها.. ولكنها فوجئت بأن...

الحلقات من ٦ - ١١

ابراهيم ابن عمـها يحبها أيضـاً، وعند ما صارحـهـا بحبه بكت وقـالت: مالناش نصـيب فى بعض.. قلبى مع واحـد تانى.. ثم إن أمك انجليـزية يا ابراهيم، ثار ابراهيم وأبلغ عـمه بما حـدث فأمـر عـبدالعظيم باشـا كل رجـال المباحث بالقـبض على حـبيب ابنتـه المجهول، تمر عـشرة أعوام ووحيد يهـرب من قرية إلى قرية ومن نجع إلى نجع وفى النهـاية يعـيش مع المـطاريد فى الجـبل ولكنه يحرص فى نهـاية كل حلقة على أن يصـعد فوق الجـبل ويصرخ: باحبك يا يسرية.. (إسم الدلع لإحسان).

الحلقات من ١٢ - ٢٥

تقوم الثورة ويقبض على عبد العظيم باشا، ولكن يسرية كانت قـد تزوجت مـن ابراهيم بضـغط من والدها ومـن الحكمـدار الإنجليـزى الذى هددها بأن تعـود انجلتـرا إلى احـتلال مـصـر، فوافقت ولكن ابراهيم عـاملها معاملة سيئة ثم خـانها عندما أحب مارجـريت ابنة خـالته الإنجليـزية، وكانت إحـسان صـابرة على حياتهـا المؤلمة معه ولكن عندما هاجم الإنجليز مـصر فى العدوان الثلاثى تصدت لابراهيم بقوة وقالت له: طلقنى.. أنا لسه قلبى مع وحيد.

حاول أن يستـرضيها فطلب من القوات البـريطانية أن تنسحب

فانسحبت بناء على توسلاته، صادرت الثورة أملاك عبد العظيم باشا فأصبح فقيراً يذهب كل شهر ليصرف مائة جنيه فقط من ملايينه، وهناك يقابل وحيد الذى ردت له الثورة اعتباره وعينته فى لجنة المصادرة والحراسات وأعطته نسبة من الأملاك والأطيان والأموال المصادرة فأصبح غنياً جداً وذات يوم قال لعبد العظيم باشا (سابقاً): مش فاكرنى يا باشا.. أنا الشاب اللى رفضت تجوزه بنتك وبعت المباحث يدوروا علىّ فى مصر كلها.. عشر سنين يا باشا وأنا هربان فى الجبل وانت السبب.

فانهار الباشا باكياً وقال: سامحنى يا بنى.. أنا عبد المأمور، الانجليز كانوا رافضين الجوازة دى، لأن الناس اللى بتحب بعض لو اتجوزت، الحب حايملا مصر، والحب قوة قاهرة.. وسلاح قوى فى مواجهة المستعمر.

أصيب وحيد بالدهشة ولكن تأكد من صدق الرجل من سجلات الخارجية الانجليزية.

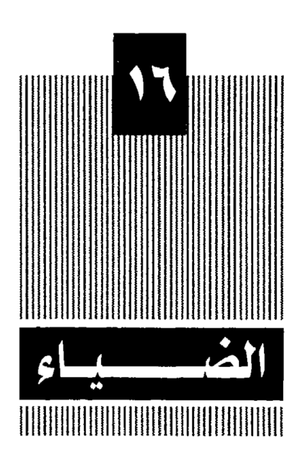
الحلقات من ٢٦ - ٨٠

يتعرف وحيد على وفيه زميلته فى إدارة الحراسات ولكنه يطلقها عندما يكتشف أنها ليست مخلصة لقضايا الجماهير، فيما بعد يكتشف أنها على صلة طيبة بالجماهير وأنها هى التى أخرجتهم الشارع يوم ٩ ، ١٠ يوينو ١٩٦٧ بعد النكسة فيحبها مرة أخرى ولكن الوقت يكون قد فات فقد تزوجت من شاب تعرفت عليه، فيشعر بحزن طاغ غير أنه كان محظوظاً فقد مات زوجها فى حرب الاستنزاف، فتزوج وفيه بعد نهاية العدة، وفى ليلة الزفاف يفاجأ بيسرية أمامه بعد أن طلقها ابراهيم، يهرب

وحيد من الفرح ويتزوجها، تستولى حالة عصبية على وفيه فتخرج بملابس الزفاف حافية القدمين وتجرى فى الشوارع إلى أن تصل إلى كورنيش النيل، وهناك تقابل ابراهيم وكان يمشى حزيناً هو الآخر فيتزوجها.

الحلقات من ٨١ - ١٥٠٠

يكتشف ابراهيم أن وفيه كانت تحب وحيد فعلاً وأنها مازالت تحبه فطلقها فتزوجت من سامى ابن أخت يسرية وهو رجل أعمال صعد إلى السطح أثناء الانفتاح فى الوقت الذى مل فيه وحيد عشرة يسرية فقد كانت نكدية بعض الشىء فطلقها وتزوج من أختها أم سامى ولكن عديله بنت خالة عبد الرحيم كانت منشغلة بتدبير مقلب لسميرة ابنة عزيزة لكى تفوت عليها فرصة الزواج من على ولكن علية استطاعت فى اللحظة الأخيرة-أن تنقذ سميرة ولكن للأسف كان على قد هاجر إلى استراليا فقابل هناك فوزية وتزوجها ولم يطق حياة المهجر، فعاد إلى مصر هرباً من مطاردة مارجريت (مارجريت تانية غير الأولانية، الأولانية انجليزية ودى استرالية.. مجرد تشابه فى الأسماء) ابنة محافظ «سيدنى» ولكن مارجريت جاءت إلى مصر وواصلت مطاردته غير أنها ذات ليلة قابلت فوزى فأحبته وتزوجته هنا يكون السادات قد حرر سيناء فيغضب خليل ويطلق عنايات ويتزوج من عديلة، يتضح أن مارجريت جاسوسة اسرائيلية وأنها تزوجت من فوزى ليتجسس لها على أسرار كتاب المسلسلات، ولكن أجهزة الأمن كانت تتابعها منذ لحظة نزولها إلى المطار، وفى نهاية الحلقة ١٥٠٠ يقبض عليها الضابط الشاب عفت.. فاكرين يبقى ابن مين؟!



في ليلة رمضانية ذات شتاء بارد، حكت لى جدتى هذه الحدوتة .. يُحكى أن رجلاً فاضلاً تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، فشعر بانقباض شديد فى صدره جعله يسير فى شوارع المدينة على غير هدى إلى أن خرج منها وفوجئ بنفسه تائهاً فى الخلاء بين التلال الموحشة. شعر بالرعب بعد أن استولت الظلمة على المكان فزادت من وحشته . غير أنه رأى على البعد أنواراً، بدأت تتضح ملامحها كلما اقترب منها ، إلى أن وصل إليها. كان المكان كله يسبح فيه مجموعة كبيرة من البشر فى هدوء ورقة. رحبوا به فى صدق وقدموا له مشروب القرفة الساخن الذى دفع الدفء فى أوصاله ، ثم قدموا له قهوة كان بالفعل فى حاجة إليها . بدأ يشعر بجمال غريب يتسلل إليه، وكأنه فى عالم مسحور، حتى صوت المقرىء كان جميلاً وقوياً وكأنه آت

من السـماء، وعندمـا انتـهت السهـرة، كـان قد تخلص تمامـاً من إحساسه بالهم وبالاكتـئاب ، ودعهم ولسانه يلهج بالشكر والثناء، سألوه: لعلك سعدت معنا الليلة؟

-أنا أكثر من سعيـد، أنا فرح، أشكركم من كل قلبى، فقد أزلتم اكتئابى ورفعتم عنى أحزانى... صـوت المقرىء كان جميلاً لدرجة لا توصف، والجلسة مـريحة للغايـة، والقوم حولى كلهم طيـبون والقهوة لم أشرب مثلها من قبل.

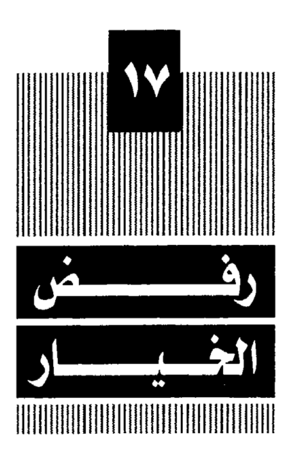
وصـفوا له طريق العـودة، وأعطوه صـرة ثقيلة طلبـوا منه ألا يفـتحـهـا، إلا عندما يصل إلى بيـتـه، وفى البيـت وجدها ممتلئـة بالذهب. كما هو مـتوقـع ظهرت عليه آثار النعـمة إلى درجة أثارت حقد البعض، سـأله أحد الحاقدين عن مصدر هذه النـعمة؟ فحكى ببسـاطة تفاصيل كـل ما حدث. لم يضع الحـاقد وقتـاً وخرج من فوره من المدينة، وسار فى الخـلاء إلى أن غربت الشمس وسادت الظلمة المكان، سار فى كل الاتجاهات إلى أن وجد السرادق، رحبوا به فى حرارة فرد عليـهم التحية ببرود، جلس مـتململاً فى مكانه، إلى أن انتهت السهرة، سألوه وهو يستعد للانصراف، هل سعدت معنا الليلة؟

أجاب فى اسـتعلاء : يـعنى... المقاعد لم تكن مـريحة وقـديمة، وقماش السرادق بهتت ألوانه وتمزقت أطرافه، ثم ... من أين أتيتم بهذا المقرىء صاحب الصوت الردىء، إن صوته أشبه بثغاء المعيز، صـوته يصلح فقط لـلنجوع والقـرى الفقـيـرة، فى المرة القادمـة اتصلوا بى وأنا أدلكم على مكان تحـضرون منه أدوات الفـراشة،

كما سأحضر لكم مقرئاً عظيماً .. ماذا عن القهوة ؟ لا تؤاخذونى، فأنا صريح جداً، البن ردىء جداً، فى المرة القادمة سأدلكم على أعظم محل يبيع البن .. والآن بعد إذنكم فليس لدىّ وقت ، هل تتكرمون بإعطائى الصرة ..

سمع صوتاً يقول له : خذ .. وفجأة اختفى كل شىء ، السرادق والبشر والأنوار، لاشىء ، الظلمة فقط حوله وصفير الرياح وعواء الذئاب، عندها أدرك الرجل الحاقد أن المشهد جميعه كان من صنع الجن الطيب، لعلهم كانوا يتسلون باختبار البشر، مسكين لقد رسب فى الامتحان، امتحان العدل والجمال، لم يكن عادلاً ولم يكن جميلا.

ستقابل فى حياتك كثيرين عاجزين عن تقييم أى إنجاز، حتى لو كان من صنع الجن، ستراهم يتفرغون لتشويهه والنيل منه، لافتقارهم إلى العدل والجمال.



أنا شديد الإعجاب بهؤلاء الذين يرفضون علناً كل ما وافقوا عليه سراً. وأخيراً جاء الوقت الذى أتشجع فيه وأعلن بصوت مرتفع وبكل وضوح ما أرفضه. ارتديت ملابسى ونزلت من فورى إلى كورنيش النيل، واجهت النيل بقوة، وصحت فيه: أيها النيل.. أنا أرفضك.

يبدو عليه أنه لم يسمعنى فصحت فيه بصوت أقوى: ألم تسمعنى أيها النيل؟! أنا أرفضك بكل قوة.

من الواضح أن النيل قد فقد حاسة السمع، بعد أن طعن فى السن، عمره الآن أكثر من مائة ألف عام.

حدقت فى أمواجه التى تمضى فى طريقها فى هدوء ورقة، ثم تركته ومشيت. ذهبت إلى محطة سكك حديد مصر، وجدت عشرات القطارات، وعشرات الأرصفة، وعشرات آلاف الركاب،

١٧

تسلقت عموداً أوصلني لمنتصف السقف الحديدى، وجلست ثم صحت فيهم بصوت كالرعد: أيتها القطارات، إننى أرفضك.. أيها البشر، إننى أرفضكم.

لن يسمعنى أحد، فالقطارات تصدر ضجيجاً عاليا، والبشر أيضاً يتصايحون ويتقافزون كالقردة، لا أحد يسمع رفضى له، خرجت من محطة القطارات، وتوجهت إلى موقف تاكسيات الأقاليم. مولد يضج بالنداءات والصيحات، الكل يصيح، قفزت فوق سطح ميكروباص وصحت: أيها الناس.. أيها الناس.

توقفوا جميعاً عن الصياح ونظروا إلىّ فى دهشة، فواصلت : ياركاب الأقاليم .. أيها الذاهبون إلى القرى والمراكز والمدن .. يامن انشغلتم بمصالحكم الخاصة عن القضية العربية .. أنا أرفضكم، وأنت أيتها الميكروباصات والتاكسيات، إننى أرفضك وأرفض وجودك.

أنزلونى برفق من فوق الميكروباص وانشغل كل منهم بشأنه، لماذا لا تأخذ الناس كلماتى على محمل الجد؟! شعرت بملل وببعض اليأس، ذهبت إلى دار للسينما كانت تعرض فيلماً أمريكياً، فشلت فى العثور على مقعد، قلت لمدير السينما : أنا أرفض السينما الأمريكية بشكل عام، وأرفض هذا الفيلم بوجه خاص.. وأرفض أن يتدافع مئات الألوف من البشر لرؤيته.

رد علىّ باسماً بهدوء : وأنا أيضاً .

شعرت بارتياح، هذا هو واحد على الأقل يشاركنى الرفض، لو أعطيت الفرصة والوقت الكافى سوف أحوِّل كل شعوب الأرض

إلى رافضين، تركت السينما ومشيت فى شارع «معروف» بوسط البلد، كان هناك محل كشرى شهير، امتلأ بالعمال وصبيان الميكانيكية، كانوا يتأوهون من الشطة، بينما رائحة «التقلية» تزكم الانوف، ومع ذلك كانوا جميعاً يأكلون فى شهية، صحت فيهم : أيها السادة، أنا أرفض هذا الكشرى وهذه التقلية وتلك الصلصة .. وأرفض الطريقة التى تأكلون بها ..وأرفضكم .

الأوغاد كانوا منهمكين فى الأكل فلم يسمعونى، أخرجونى من المحل فى رفق، وقفت أمام أقرب ميكانيكى، كان يعمل بهمة ونشاط فى أحد المواتير، قلت له : أنا أرفض هذا الموتور، وأرفض هذه السيارة وأرفضك . التفت لى الرجل مبتسما، وقال : اقعد خد شاى يا بيه.

أخيراً سنحت لى الفرصة أن أرفض شيئاً ملموساً، فصحت : أنا أرفض دعوتك على الشاى.

قال : خلاص يا بيه .. تشرب عصير قصب ؟!

فصحت : وأرفض عصير القصب.

مرة أخرى قال بهدوء : مش عاوزينك تزعل يا بيه.

أوضحت له أنى لست غاضباً وأننى أعلن رفضى فقط، فقال بهدوء : طب لو سمحت سيبنا فى حالنا .. ورانا شغل.

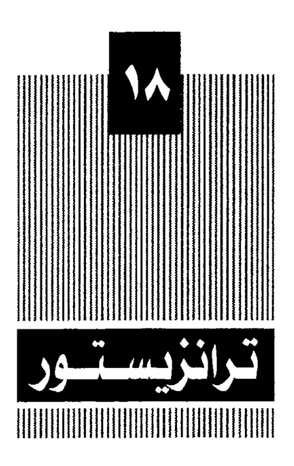
أمام محل الخضراوات المجاور فاجأنى صاحبه بالسؤال : هل سترفض كل هذه الخضراوات؟

فأجبته : ليس كله .. لست أرفض خيار الصوب، ولا الخيار البلدى .. أنا فقط أرفض الخيار العسكرى.

١٧

فقال : لا أحد يقبله ..

أشعرتنى إجابته بارتياح، فمضيت فى طريقى وأنا أفكر فى أن دعوتى بدأت تجد صدى، هذا ينعش أملى فى الانتقال من مرحلة الرفض إلى مرحلة التصدى، وبالفعل تصديت بكل ما أملك من قوة لدرجة أن الصدأ غطّى كيانى كله.



١٨

ترانزيستور

منذ نصف قرن أو حول ذلك كان مقياس النضج والعظمة والجمال هو الإفراط فى الطول والعرض. وفى مجال المديح يقال عن الرجل أنه «راجل طول بعرض» وهو أيضاً ما كان يقال فى وصف المرأة المتميزة. لذلك كان من البديهى أن يكون هذا المقياس هو السائد فى السينما المصرية. تذكر معى حجوم نجوم ذلك العصر، حسين صدقى، أنور وجدى، زكى رستم، يوسف وهبى، سراج منير.. كانوا جميعاً يصلحون لأدوار المصارعين.

وعلى جبهة المرأة، كانت هناك، تحية كاريوكا، ليلى مراد، سامية جمال، نعيمة عاكف، مديحة يسرى.. جميعهن يتسمن بالطول الفارع مع امتلاء ملحوظ.

وعلى جبهة الغناء والطرب كان الحجم الكبير هو أيضاً العنصر الغالب على مطربى ومطربات ذلك العصر (دع محمد عبد الوهاب

وأم كلثوم بعيداً عن الموضوع).. عبد الغنى السيد، محمد عبد المطلب ، عبد العزيز محمود، محمد قنديل.. إلخ.

وفى السينما الأمريكية كان أبطال ذلك العصر هم، كلارك جيبل، جون واين، تايرون باور، برت لانكستر.. أما البطلات فكن جميعاً طول بعرض مثل ريتا هيوارث وكيم نوفاك.

وفجأة أو بتدريج غير ملحوظ بدأ عصر «التصغير»، اختفى العمالقة أصحاب الحجوم الكبيرة وبدأ عصر النجوم ذوى الأجسام دقيقة الحجم إلى أن وصلنا إلى الكوميديان الجديد محمد هنيدى مروراً بعادل إمام ومحمد صبحى.

اختفى حسين صدقى واستولى على مكانه أحمد زكى، كما اختفى كلارك جيبل واستولى على مكانه داستين هوفمان وعلى الجبهة النسائية في مصر ظهرت سعاد حسنى لترث كل النجمات السابقات. لم تعد النجومية وثيقة الصلة بالطول والعرض بل بالإبداع النابع من الحجم العادى (ستاندرد).. السؤال هو: متى بدأ هذا التحول فى أفكار البشر، أقصد الاتجاه إلى اختصار الطول والعرض؟

أنا أعتقد أن أفكار البشر تتغير عقب الاكتشافات العلمية والمتغيرات التكنولوجية، إن كل اختراع جديد على وجه الأرض يعقبه بالحتم تغير فى سلوك البشر وفى طريقتهم فى التفكير، والمسئول فى رأيى عن عنصر «التصغير» فى السينما العالمية والعربية والحياة بشكل عام هو ظهور اختراع جديد هو «الترانزيستور».

لاشك أن صاحب هذا الاختراع كان يعانى من الشعور بأن الدنيا قد ضاقت بمن فيها ومن عليها لضخامة المبانى والمصانع والسيارات والبشر لذلك قرر أن يجعل الحياة أكثر سهولة بأن تكون الأشياء أصغر حجماً، فبدأ بجهاز الراديو.. بعدها بدأ السباق تحت شعار «كن الأصغر تكن الأنفع» هل تعرف أن جهاز الفيديو كاسيت الذى أصبح فى حجم الكتاب متوسط الحجم كان يحتل منذ أربعين عاماً دوراً بأكمله فى مبنى التليفزيون. هل تعرف أن جهاز الكمبيوتر الصغير كان ذات يوم يحتل عنبراً كبيراً ويقوم على تشغيله عدد كبير من البشر المتخصصين؟

ولكن هذا الاختراع «التصغير» بما أنشأه من اتجاه جديد فى التفكير يشبه كل دواء ناجح لابد أن تنتج عنه آثار جانبية ضارة، إن الأصل فى الترانزيستور هو الحجم الصغير والأداء الأعظم، غير أن بعض الناس تصور أن «التصغير» مطلوب فى حد ذاته بغض النظر عن حجم الأداء المطلوب. فكانت النتيجة أن تحولوا هم أنفسهم إلى ترانزيستورات تمشى على قدمين..

هكذا - فى تصورى - ظهرت الأفكار الصغيرة والأفعال الصغيرة والفنون الصغيرة والسياسات الصغيرة.

وهذه نتيجة طبيعية فالبشر أحياناً يخترعون أدوات على شاكلتهم ثم يتأثرون بها إلى الدرجة التى تجعلهم يقلدونها بغير وعى فتكون النتيجة أن يصبحوا على شاكلتها فى ما بعد.

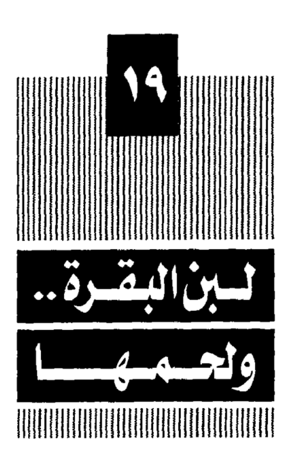
ومع كل ذلك فأنا لا أعطى للحجم نفسه أية أهمية، الأهمية القصوى فى نظرى هى الوعى الصحيح بأبعاد هذا الحجم وبذلك

١٨

نعرف المساحة التى يجب أن نشغلها على الأرض وبين البشر.. إن عدم الوعى بالحجم الحقيقى يترتب عليه بالضرورة العجز عن إيجاد المكان المناسب على الأرض.

أعطيك مثالاً، لنفرض أنك تعودت منذ سنوات طويلة على قيادة سيارة صغيرة وفجأة لسبب ما طُلب منك أن تقود لورى، من المؤكد فى هذه الحالة أنك ستهشم سيارات الآخرين لأنك لم تكتسب بعد الوعى بأبعاد حجم هذا اللورى.

إن الوعى الزائف بأن حجمنا يفوق حجم الآخرين سيترتب عليه فقط الاصطدام بهم والعجز عن إيجاد مكان لنا بينهم.



إليك نكتة قديمة:

اثنان من وكلاء الوزارات - عندما كان وكيل الوزارة له «شنه ورنه» - تاها فى الصحراء، الجو حار جداً، أحدهما بدأ يتخفف من ملابسه، خلع الجاكيت وربطة العنق، بعد قليل خلع الحذاء والجوارب، ثم خلع القميص والبنطلون ثم خلع ملابسه الداخلية.

قال زميله مندهشاً: معقول يا باشا تمشى كده عريان بلبوص؟

- يعنى هو فيه حد حايشوفنا؟

طب لابس الطربوش ليه؟

- يمكن حد يشوفنا.

●●●

فى علم النفس يسمون هذا السلوك «Ambivalence» يعنى أن تجذب وأن تدفع فى الوقت نفسه فتكون محصلة جهدك صفراً

كبيراً. ولكنك قد تفعل ذلك مستنداً لحكمة التوازن الشهيرة، ولكنه فى واقع الأمر إخلال بالتوازن، هو محاولة للحصول على لبن البقرة ولحمها معاً، هذا هو المستحيل، كما أنه من المستحيل أن تخدم سيدين.

إذا فكرت أن تشرب اللبن، فاستبعد من البداية أن تذبح البقرة، وإذا قررت الحصول على شرائح اللحم، فوطد نفسك على أنك ستشرب لبناً جافاً من السوبر ماركت.

والتوازن ليس هدفاً فى حد ذاته، بل هو وسيلة للتقدم. فأنت عندما تملأ إطارات سيارتك بدرجة محددة، الجهة اليمنى مماثلة للجهة اليسرى، فإنك بذلك تطلب الحصول على الأمان أثناء القيادة إلى الأمام.

فى كل مجتمع وفى كل مراحل التاريخ توجد قوى تقدم وقوى تخلف، هذا أمر ليس جديداً أو مستغرباً أو شاذاً، هذه هى طبيعة تجمعات البشر شئنا أم أبينا، ولكن السؤال دائماً هو.. مع من تقف القيادة السياسية؟ على المستوى العملى المسألة ليست بهذا الوضوح فكل القوى السياسية، تزعم أنها تنشد التقدم، حتى كلمة التقدم نفسها هى الأخرى لا تخلو من شبهات. فقد عشنا لسنوات طويلة فى أنظمة جماعية تصف نفسها بالتقدمية وتصف الآخرين بالتأخر والرجعية. كلمة تقدمى كانت تطلق فقط على المتحمسين للأنظمة الشمولية، وكانت تهمة العمالة للامبريالية العالمية فى انتظارك إذا شوهدت ترتدى قميصاً جيداً، أما إذا شوهدت بالصدفة تأكل كباباً، فهذا دليل لا يقبل الشك، على ميولك

البورجوازية، وخروجك على الإجماع، كما لو أن العدل يحتم أن تدعو تحالف قوى الشعب العامل، ليتناول معك ربع كيلو الكباب.

أما كلمة الديموقراطية فمن الطريف أنها ارتبطت لسنوات طويلة بالجمهوريات الشعبية الشمولية. فكيف نتعرف الآن على معنى التقدم وسط غابة الكلمات والمصطلحات والمفاهيم المحيطة بنا؟ ما هو التقدم الذى نقصده؟ ما هو محتواه وعلاماته ودلائله.

أتصور أن التقدم هو الحفاظ على حقوق الإنسان الفرد، وإتاحة الفرصة له للاستفادة من كل طاقاته المبدعة فى كل المجالات وحمايته من الآخر، وحماية الآخر منه بقوة الدولة المستندة للفصل الصارم بين السلطات. الحرص على البيئة والحفاظ عليها من القبح والتلوث، وإذا كان على الأرض مواطن يستحق لقب المواطن رقم واحد فلا شك أنه البيئة. أما التخلف فهو ضد كل ذلك. الحجر على حرية الإنسان فى التفكير الحر، الحجر على نشاطه المثمر لنفسه وللآخرين، حضه على كراهية الآخرين والفزع منهم، تمهيداً لعزله عن العالم، دفعه دفعاً إلى احتقار نفسه واحتقار الحياة، بذلك يفقد حماسه إلى الفعل النبيل، فلا ينشغل إلا بالعدوان على الناس بالفعل أو بالقول أو بالفكرة.

التقدم هو أن تعمل كل القوانين واللوائح، على تشجيع المنافسة الشريفة والإتقان. فلا شك أننا نكون أكثر إنسانية وتقدماً عندما نكون أكثر إتقاناً.

للتقدم حزمة مفاتيح، وللتخلف حزمة أخرى وكلتا الحزمتين يحتفظ بهما رجل الدولة. التقدم نفسه موجود فى مخازن البشر

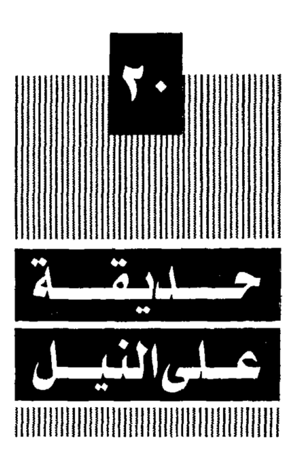
داخل عقولهم وقلوبهم، نفس الشيء يصدق على التخلف أيضاً، ولكن المفاتيح نفسها موجودة في عهدة رجل الدولة، لذلك فالتقدم أمانة فى عنقه أمام الله وأمام البشر وأمام التاريخ. عليه أن يزيح من أمامه علامات المرور الحمراء، وأن يمهد له الطرق السريعة، وأن يزيل منها المطبات الطبيعية والصناعية. إن عظمة رجل الدولة لا تتحقق إلا بإتاحته الفرصة للتقدم أن يتقدم، غير مطلوب من رجل الدولة القضاء على دائرة التخلف، فهذا ليس متاحاً لمخلوق على وجه الأرض، المطلوب منه فقط العمل الدائم - بكل لطف ورقة وحزم - على تقليل مساحة دائرة التخلف، الأمر الذى سينتج عنه حتماً توسيع دائرة التقدم. أما وضع المفاتيح فى حزمة واحدة، والعمل على فتح أبواب التقدم، ومعها أبواب التخلف فى وقت واحد، بدعوى التوازن والاستمتاع بالصراع بين النهار والليل، فهى معركة محسومة لصالح التخلف ليس لضعف قوى التقدم، ولكن لخصائصها البشرية، التى تتطلب فترة حضانة طويلة. كم يحتاج الإنسان من وقت ورعاية لينمو وكم يحتاج الميكروب؟

كم من الأعوام تحتاج المجتمعات لصنع ملحن عبقرى واحد، أو مهندس عبقرى واحد، أو شاعر واحد؟، وكم من الأعوام تحتاج لصنع شخص متخلف واحد يذبح أهل قرية أو نجع؟

عندما تضيق دائرة التقدم، وتتسع دائرة التخلف، سيكون من الصعب عليك العثور على سباك ماهر، بينما ستجد بسهولة عدداً كبيراً من البشر ماهرين كل المهارة فى تمزيق أجساد الأبرياء.

بعد آخر غـير الازدواجية تشـير إليه النكتة، هو التـمسك الذى لا معـنى له بالرمز نضـعه فـوق رؤوسنا، بينما نحن نعـيش فى صحراء الدنيا عراة تائهين. قيلت هذه النكتة فى الأربعينات، عندما كانت الدعـوة لخلع الطربوش تمثل جريمة فـى حق الوطن والأمة، بوصفه من «الثوابت» التى لا يمكن التخلى عنها.

أنا شـخـصيـاً ضـربت علقـة سـاخنة فى مـدرسة «دمـيـاط الابتـدائية»، لأننى ذهـبت ذات يوم بدون طربوش، والآن تكال لى ضربات عديدة، لإصـرارى على التخلص من كل أنواع الطرابيش، طربوش واحد فـقط لن أخلعه إلى الأبد هو كـرامة الإنسـان الفرد وحريته.



خبران يعلو أحدهما الآخر فى صحيفة، مصدر الخبرين بلد عربى أفريقى يزعم أهل الحكم فيه أنه إسلامى، فيما الخبران يشيران بوضوح إلى استحالة تصديق ذلك. الخبر الأول يقول إن (١٣ مواطناً ماتوا عطشاً وهم فى طريقهم إلى ليبيا بحثاً عن فرصة عمل بعد أن تعطلت بهم السيارة فى طريق صحراوى غير ممهد وليس به علامات إرشادية) والخبر الثانى يقول (٤٠ جلدة لـ ٢٥ طالباً أدينوا بارتكاب «فعل فاضح») هؤلاء الطلاب كانوا فى رحلة إلى حديقة مطّلة على النيل عندما وصلت شرطة النظام العام فقبضت عليهم وفى اليوم التالى مثلوا أمام المحكمة التى حكمت بجلد كل منهم ٤٠ جلدة ودفع غرامة تتراوح بين ٢٥ – ٥٠ ألف جنيه (لا تستهول الرقم فهو ليس أكثر من ١٠ – ٢٠ دولارا، ولتحمد الله على أن الثوار أصحاب الفضيلة لم يحكمونا

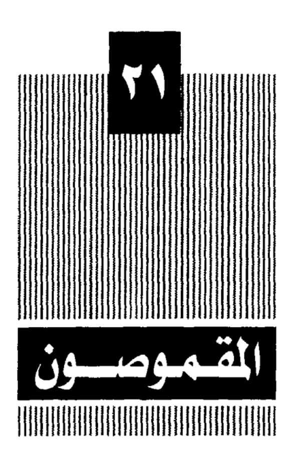
بعد) كانت التهمة هى.. الازعاج، الشغب، القيام بفعل فاضح.

طبعاً نحن نعرف ما هو الازعاج، ونعرف أيضاً الشغب وإن كنا لا نتصور إمكان صدورها عن الشبان فى رحلة إلى حديقة عامة على النيل، ترى من شاغبوا ومن أزعجوا؟ تماسيح النيل؟ أم أشجار الحديقة ونباتاتها؟ غير أننا سنتوقف باهتمام أمام التهمة الأخيرة لنكتشف أن ارتداء الفتيات للبنطلون الطويل تعتبر فعلاً فاضحاً، ليست الفساتين القصيرة، بل البنطلونات؟!! هكذا تم جلد تسع فتيات جامعيات، وقع نظام الحكم على أجسامهن ببصماته الكريمة متجسدة فى ٤٠ جلدة. وتم تنفيذ الحكم أمام قاعة المحكمة بعد الحكم بلحظات، بعد أن رفض القاضى الطلب الذى تقدم به المحامى بتأجيل التنفيذ إلى أن تبت فيه محكمة الاستئناف وهو ما يحتمه القانون. وكأنه يخشى أن تلغى محكمة الاستئناف الحكم أو تعدله أو تخفضه أو يصدر حكمها بالبراءة. لقد التزم القاضى بالقانون عندما أصدر حكمه بالجلد ثم قام بحماسة منقطعة النظير بانتهاك نفس القانون عندما رفض تأجيل التنفيذ إلى ما بعد صدور الحكم فى الاستئناف، أى أنه ينفذ من القانون ما يتفق مع ما يريده.. هو.. وبذلك يخرج بالقضية من ساحة القضاء إلى ميدان التحليل النفسى، شاغلاً إيانا بالسؤال الشهير الذى نحاول دائماً الهروب من الإجابة عليه: لماذا يكره بعض الناس المرأة إلى هذا الحد؟ أم إن السؤال هو: لماذا يكره بعض الناس الاستمتاع الشرعى فى الحياة فى أبسط صورة له وهو القيام برحلة إلى حديقة على النيل إلى الدرجة التى تستوجب العقاب

بالجلد النافذ فوراً بعد صدور الحكم من محكمة الدرجة الأولى.. هؤلاء الثوار الذين يزعمون أنهم حريصون على «إرشادك» إلى الفضيلة والحياة الفاضلة، ويجلدونك لأنك قمت برحلة إلى حديقة على النيل، هم أنفسهم الذين لا يهتمون بوضع علامات إرشادية فى الصحراء ترشدك إلى الطريق السليم فتتوه وتموت عطشاً.

منذ حوالى ٤٠ عاماً قال لى صديق مثقف من بلد الفتيات المجلودات: نحن مختلفون عنكم، نحن لا نطيق الديكتاتورية، نحن شعب متمسك بالحرية ونرفض أن يعتدى عليها أى نظام حكم.

وكان صادقاً، كانوا كذلك بالفعل، إلى أن خرجت عليهم المدرعات تشق للشعب طريقاً جديداً إلى الجحيم. ولما كان مصير الحكم العسكرى الحتمى هو الانهيار لعجزه عن التنمية الحقيقية، لذلك كان لابد أن يتحالف مع نظرائه الأتقياء ليتمكنوا فى النهاية من تحقيق الهدف العظيم وهو جلد الفتيات الصغيرات لأنهن ذهبن فى رحلة إلى حديقة على النيل مرتديات البنطلونات.



أقف طويلا أمام الألفاظ الغريبة محاولا التعرف على أسرارها، فإنه من المستحيل أن يخترع الجنس البشرى كلمة جديدة إلا إذا كان فى حاجة إليها لكى يصف بها شيئا أو فعلا تعجز مفرداته الجاهزة عن وصفه.

فاللغة هى «عدة» البشر التى يعملون بها فى حياتهم اليومية، فمثلا اخترع الإنسان «المفك» عندما وجد أنه فى حاجة إليه، واخترع المشرط عندما احتاجه فى الجراحة أو النشل. هكذا اللغة، فلماذا يا صديقى اخترع الناس فى مصر كلمة مقموص؟ نحن نقول فلان مقموص من علان.. فماذا نعنى بذلك؟

– يا أخى، اطلع من نافوخى، هو إنت دايما تعمل من الحبة قبة وتغوص فى أعماق المحيطات لتستخرج طوبة أو زلطة لتخضعها للبحث الفلسفى.

■ نعم ، لأن عـقلى يعـمل طول الوقت .. هذه الـزلطة أو هذه الطوبة، مـا هى وظيـفتـهـا فى أعمـاق المحـيط؟ ولماذا هى هناك.. وبالتالى سأواصل موضوع البـحث.. وسأتحاور معك.. فأنا لست مذيعا، أنا محاور.. ما هو المعنى العلمى لكلمة مقموص؟

– مقموص يعنى زعلان..

لماذا اخترعـها إذن العقل الجمعى إذا كـانت كلمة زعلان تؤدى نفس المعنى؟ لا يا عزيزى.. الزعـل ليس هو «القمصة» والمقـموص ليس هو الشخص الزعلان.

– معناها إذن غضبان.

الغضب يأتى نتـيجة لأسـباب واضحـة ويزول بزوالها.. ولكن القمصة أسبابها دائما غـامضة.. تأمل معى هذه الصفات.. زعلان، غضبان، مـستاء، متكدر، متنكد، متضـايق، قرفان.. ولكن كل هذه الصفات وغيرها لا تكفى لفهم القمصة والشخص المقموص.

– طيب، تسمح بقى تشرح لى.. لأنى بدأت أتقمص منك.

■ ها أنت تقترب من المعنى المقصـود.. القمصة نوع من الضيق غـامض المصـدر.. يشـيع حـالة من الـنكد والكدر فى العـلاقـات الإنسانية.. أما فى العلاقات السياسية فقد يؤدى لكارثة.

– من الواضح أنك تتعامل مع السياسة بشكل جاهل تماما.

■ إننـى أشكر لـك هذا المديـح.. إن أخطر شـىء فى العـــمل السياسى هو الآراء والأفكار التى تبدو عبقرية.. أما التعامل مبتدئا من نقطة الجهل فـهو طريق السلامة.. لأنك عندمـا تقول أنا أجهل هذا الموضـوع فـلابد أنك سـتسـارع بالحـصـول على العناصـر

والمعلومات التى تزيدك به علما.. واللاعب أمامك خصوصا إذا كان حليفا سيزداد احترامه لك عندما تقول له: سيدى.. أريد أن أفهم الأسباب التى تدفعك لكذا.. وكذا.. كما أريد منك أن تفسر لى موقفك من كذا.. وكذا.. لأنى عاجز عن فهمه..

- نرجع للقمصة والمقموصين.

■ حاضر.. أى شخص توجد مشكلة حقيقية بينك وبينه ويتمتع بدرجة من النضج الحياتى والسياسى.. سيجلس معك فى هدوء لمناقشة أبعاد هذه المشكلة.. قد يكون غاضبا منك أو مستاء أو متكدرا، ولكنكما بالقطع ستصلان لحلول لهذه المشكلة.. ولكن - بعد إذنك - تعال ندخل فى المشكلة الأخيرة التى حدثت بين مصر وأمريكا..

- لم توجد مشكلة بين مصر وأمريكا.. ولا توجد مشكلة بين مصر وأمريكا.

■ جميل.. هى أزمة إذن..

- لا.. ليست هناك أزمة، ولم تكن هناك أزمة.

■ إذن لا طرف غاضب من الآخر.

- طبعا..

■ ولا أحد مستاء من الآخر..

- طبعا..

■ جميل.. بماذا تسمى إذن هذا الذى حدث..؟

- مصارين البطن بتتخانق...

أشكر لك ذكر هذا المصطلح الشهير الذى اخترعه المصريون

كـعـمليـة تبرير رائـعة لاحـتـواء المشـاكل التى يريدون تجـاهل أسـبابهـا... ولكن يا عـزيزى عندمـا تتـصارع الأمـعـاء وتكركب ويحدث المغص.. فلابد أن هناك سببا لذلك.

– نعم، هو... هو...

■ لا تـحاول تفـادى الكلمة.. هو القمـصة.. كنا مقـموصـين من أمريكا.

– إحنا اللى كنا مقموصـين ولا همه؟

■ براڤو.. أى قمـصـة تنتج عنها قمصة مـضـادة.. ولذلك نقول فـلان وعلان مـقمـوصـين من بعض.. ولعل من أطرف الأمـور أن تستـمع لحوار بين شـخصين مـقموصين، وهو يدور علـى النحو الدائرى التالى:

– مالك؟!

■ مالى إيه..؟ شايفنى مالى يعنى؟

– لا يعنى.. شايفك كده مش زى عوايدك..

■ قـصـدك إيه مش عـوايدى..؟ تسـمح بقى تفـهـمنى هى إيه عوايدى؟

– إنت زعلت..؟

■ حازعـل من إيه؟.. إلا إذا كنت بقى شايف إن كـلامك يزعل.. إفرض إنى زعلت..

– من إيه؟

■ حايقول لى من إيه؟ قال يعنى مش عارف من إيه؟

– والله ما أنا عارف..

■ لا يا شيخ..

– الله.. إنت عاوز تعملها أزمة؟!

■ مش أنا اللى عاوز أعملها أزمة.. إنت اللى عاوز تعملها..

– أنا؟.. والله يا أخى ما أنا غاوى أعمل أزمات ولا نيلة.

■ إيه حكاية النيلة دى كمان؟

– الله.. هو إنت حاتمسك لى على الواحدة؟

■ أمال يعنى إنت اللى تمسك لى.. خلاص يا سيدى.. مافيش أزمة ولا حاجة.. ماتحاولش إنت بقى اللى تعملها.

– تانى حايقول لى أنا اللى باعملها..

أمال قصدك أنا؟

– خلاص يا سيدى مافيش حاجة.. والله ما فيه حاجة..

وينتهى الموقف، ولكن هل انتهى حقا؟ الإجابة هى: لا..

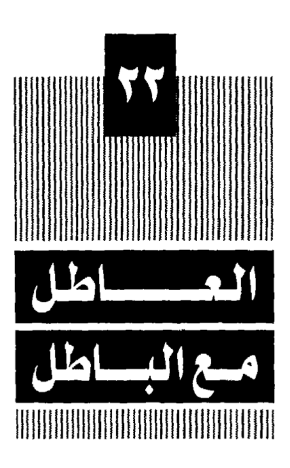
لسبب بسيط.. القمصة هى انعدام الشجاعة العقلية الكافية لمصارحة الطرف الآخر بحقيقة المشكلة.. واللجوء لاستخدام الكلمات المجاملة أو التى لا معنى لها.. فلا يتم اقتحام المشكلة ولكن تأجيلها لتتفجر مرة أخرى فيما بعد.. إذن المقموص هو شخص مستاء منك لأسباب سيعجز حتما عن شرحها لك لعجزه عن المواجهة، ولذلك نقول: خد بالك وإنت بتتعامل مع فلان.. أصله من النوع اللى بيتقمص.

إذن هناك نوع من البشر «قمّاص» بحكم تركيبته النفسية، مبدأ اللذة عنده مرتبط بالعكننة عليك والحصول على اهتمامك بشكل سلبى، ولذلك لا توجد على الأرض طريقة لإرضائه وإشعاره

بالارتيـاح، فحتى عـندما تتـوفر لديه الشـجاعة لـلمصارحـة، لن يصـارحك بحقيقة المشكلة إلا بعـد مراوغة طويلة يضمن بها أنه قد عكتن عليك وعلى أهلك.. قد لا تصدق هذا التحليل.. ولكنك إذا كنت تعتقد مثلى أن كل ما يدور من عـمليات فى العقل ينظمه مبدأ اللذة فستوافق على ما أقول.

– وإذا لم أوافقك؟

■ يبقى حاتقمص منك..!



يالعبقرية المصطلح الشعبى وقدرته على التكثيف والإيجاز، إنه لم يستخدم حرف الواو، لم يقل العاطل والباطل بل استخدم (مع). فواو العطف تفيد الإضافة والتجاور فقط بينما (مع) تفيد العطف والتجاور والمساندة والتأييد والدعم والتبعية أيضاً، لذلك سنجد أن الكلمة الوحيدة المشتقة من مع، هى كلمة (معية). فنقول ظهر فلان وفى معيته علان وترتان، أى أنه حيث يظهر الباطل لابد أن يكون العاطل معه وفى معيته مؤيداً ومسانداً.

راقب كل الاجتماعات التى يتجمع فيها «العواطلية»، الذين لاعمل حقيقياً لهم، سوى مساندتهم للاستبداد، ستلاحظ على الفور أنهم تجمعوا حول الباطل وأجمعوا عليه، هم دائماً فى معية الباطل.

أما الشخص العادى الذى يعمل عملاً مفيداً للآخرين ولنفسه،

فهو محصن بالحتم ضد الباطل، يتساوى فى ذلك البائع الجائل فى عرض الطريق، ورجل الأعمال أو رجل السياسية المخلص لمصالح البشر، وسيدة البيت والمرأة العاملة والكتاب المبدعون الباحثون عن الحق والحقيقة.

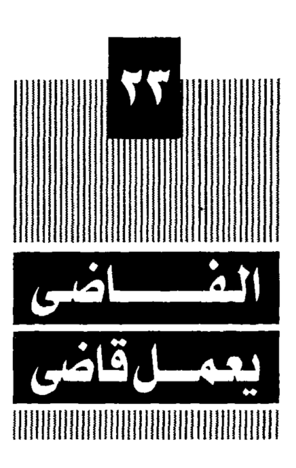
أما المحرومون من الموهبة فى كل المجالات، فلابد لهم من التجمع مع الباطل وعليه، ليصدروا البيانات الصارخة المتشنجة لنصرة الزور. لا يوجد على الأرض مكان آخر يمارسون فيه تعاستهم الناشئة عن الفراغ الذى يملأ قلوبهم.

لذلك لابد للمجتمعات لكى تظل صحيحة البدن، أن تتيح لأبنائها فرصاً واسعة للعمل والإجادة، لابد من تمجيد العمل النافع، لابد أن نرى أبطال المسلسلات التليفزيونية وهم يعملون، وأن نركز على ذلك، وأن تكون مشكلاتهم الدرامية نابعة من علاقات العمل. خصوصاً فى مسلسلاتنا التى تتناول حياة أجدادنا الأقدمين، ستجد أنهم انقسموا إلى جماعتين: جماعة الخير وجماعة الشر، الأخيار منهم يبتسمون فى عذوبة، ويهمسون فى رقة، والأشرار لهم أصوات غليظة، ونبرات وحشية، ونظرات شريرة، هم جميعاً يتبارزون، يهمسون، يتصايحون، يتآمرون، يحبون، يكرهون، ولكنى أتحداك أن تعرف ماذا يعمل أى منهم. لم يحدث أن فكر كاتب أو حرص مخرج على أن نرى أحد هؤلاء الناس ولو فى لقطة واحدة وهو يعمل حدادا، أو بناء، أو راعيا للغنم، أو تاجراً، مع أننا نعلم أن أجدادنا الأخيار منهم والأشرار، لم يكونوا بالقطع عاطلين عن العمل.

ومن عبقرية العقل الجمعى فى اللغة العربية، أنه اشتق كلمة البطالة من الباطل للإيحاء بخطورتها.

أما أخطر أنواع البطالة، فهى تلك التى نسميها (بالمقنعة)، أى ذلك الباطل الذى يرتدى قناع الحق، يجسده هؤلاء الذين تراهم فى الدواوين، وفى المكاتب، ولا هم لهم غير تعطيلك وتعويقك وتعذيبك، بدافع من الضآلة والإحساس المر بأنه لا وظيفة حقيقية لهم. أما أخطر أنواع البطالة المقنعة فستجده فى التنظيمات السياسية الوهمية، والأحزاب الورقية والجمعيات، والنقابات، التى تضم غير الموهوبين. كما لا يجب أن ننسى العاملين فى الصحف المصطنعة، هم جميعاً يمشون على غير هدى فى شوارع الدنيا، بحثاً عن الباطل لتأييده.

أريد أن أقول لك: عندما تجد سرادقاً، جمع عدداً كبيراً من البشر المتشنجين، وانتهى بإصدار بيان يؤيدون فيه الديكتاتورية والخراب والغلظة والقسوة، فليس معنى ذلك أنهم أشرار، هم فقط مجموعة من «الصيع».



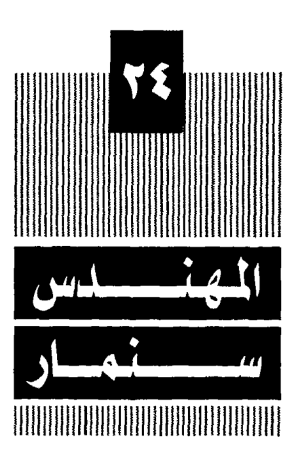
لم يترك المثل الشعبى أية مساحة فى السلوك البشرى إلا وغطاها بحكمته وتوصيفه المدهش. ففى تركيز معجز، فى كلمات ثلاث فقط جعلنا نتعرف بوضوح على الدوافع الحقيقية عند هؤلاء الأشخاص الذين عينوا أنفسهم قضاة علينا ثم انطلقوا يصدرون الأحكام على عباد الله ويوزعون باليمين والشمال أحكامهم بانعدام الوطنية أو انعدام الأخلاق أو يدهمونهم بتهمة مروعة هى معصية الخالق غير مستندين لقانون أو دستور أو عرف أو خارجين عن ذلك جميعاً.

وكلمة فاضى فى الحديث اليومى تعنى الفراغ: تقول: كوب (فاضى) أو دخلت المكتب فوجدته (فاضى) أو.. هذا الكلام (فاضى) أى لا يحتوى على قضية حقيقية، أو تكلمت مع فلان فوجدته (فاضى) كما تستخدم أيضاً بمعنى عدم الانشغال بشىء،

من ذلك، أنا فاضى غداً وبعد غد.. أو أنا فاضى بعد الظهر، إشارة إلي غياب العمل أو انتهائه، وفى أوقات الغضب تقول لمن يحاول تعطيلك: هو أنا فاضى لك؟

يقول المثل بوضوح أن هذا الفاضى الذى لا يجد ما يفعله والذى لا يشغله أمر حقيقى سوف يعين نفسه قاضياً عليك بالرغم من أنك تعلم وهو أيضاً يعلم أنه ليس قاضيك الطبيعى. هو فاضى، انزع الغطاء عن جوفه وانظر جيداً بداخله، لن تجد جراماً واحداً من العدل أو النزاهة العقلية، لن تجد سوى الفراغ، ذلك الفراغ فى النفس والقلب الذى لا يملأه سوى العدوان. ولما كان العدوان على الآخر يتطلب قدراً من الجرأة التى يفتقر إليها الفاضى لذلك نراه يقوم خلسة بإضافة نقطة إلى حرف الفاء محولاً إياها إلى قاف ليمارس عدوانه على هيئة أحكام تسبب الألم للآخرين، هذا بالتحديد ما يرغب فيه الفاضى، أن يؤلم الآخرين.

إن (عواطلية) الأفكار ومعهم (عواطلية) الشارع هم الركيزة الحقيقية لأى حكم ديكتاتور لأنه بما يمثله من قدرة هائلة ومؤكدة على العدوان يجسد مثلهم وقيمهم العليا، آلام الناس وضياعها يشعرهم بالارتياح ولا يشعرون بالطرب إلا عند سماع آهات البشر، وهذا هو بالتحديد ما يوفره لهم الديكتاتور.



لقى جزاء سنمار، جملة نقولها عن هؤلاء الذين يقومون بأعمال جليلة فتكون النتيجة وبالاً عليهم، العقاب والأذى أو الموت مثلما حدث فى حالة أخينا سنمار. كان سنمار مهندساً معمارياً عظيماً بل لعله كان سيد البنائين فى عصره بدليل أن الامبراطور كلفه ببناء قصر لا يضارعه قصر آخر فى الامبراطورية. وعند الاحتفال بتسليم القصر استدعاه الامبراطور وألقى به من فوق أسوار القصر العالية فسقط على الأرض ومات.

هنا تنتهى أحداث الحدوتة ولكن العقل الجمعى بحثاً عن منطق معقول أو مبرر لجريمة الامبراطور فسر ما حدث بأنه خشى من أن يبنى المهندس قصراً جميلاً آخر لأى مخلوق، أراد أن ينفرد بدافع من أنانيته بسكنى هذا القصر الجميل الذى لا يضارعه قصر آخر.

ولما كانت الجرائم فى الحواديت القديمة بالنسبة لى لا تموت بالتقادم وتظل حية فى ذهنى وكأنها حدثت بالأمس، وبالتالى فإن محضر التحقيق فيها يظل مفتوحاً يبحث عن أسبابها الحقيقية وليست المعلنة، لذلك قمت باستدعاء الامبراطور القاتل فى ذهنى على عادتى فى استدعاء من أشاء وقتما أشاء، حضر الرجل على الفور مرتدياً رداءه الإمبراطورى ومحاطاً ببعض حاشيته. رحبت به فى برود وقدمت له نفسى بوصفى محققاً مستقلاً أبحث عن الأسباب الخفية وليس المعلنة لجرائم البشر غير المنطقية التى يرفضها العقل، وفتحت المحضر:

س: سيدى الإمبراطور.. لأننى أرفض تصديق كل ما يقال لى، لذلك اسمح لى بأن أقول لك بأننى أرفض تماماً تصديق السبب المنطقى المعلن من أنك قتلت سنمار لكى تمنعه من بناء قصر مشابه لأى شخص آخر... فقد كانت لديك اختيارات كثيرة لمنعه من ذلك، كان من الممكن أن تصدر له أمراً امبراطورياً بالامتناع عن بناء القصور، كان سينفذه على الفور، كما كان من الممكن بقرار إدارى أن تمنعه من مزاولة المهنة وذلك بفصله من نقابة المهندسين، وكان من الممكن أن تصدر قانوناً بإزالة أى قصر آخر يبنيه سنمار بدعوى المنفعة العامة، كما كان من السهل عليك أن تعينه رئيساً لبعثة هندسية فى القطب الشمالى، أيضاً كان من الممكن أن تعينه وزيراً للأشغال وتحرم عليه طبقاً للقانون العمل فى القطاع الخاص، كان بوسعك أيضاً أن تضعه فى السجن إلى أن يموت بتهمة اختلاس مواد بناء والتلاعب مع المقاولين.. كل هذه

الاختيارات كانت متاحة لك وكلها تضمن لك أن تحرم الاخرين من عبقريته فى المعمار، فلماذا قتلته.. لماذا قتلت سنمار؟

وهنا حدث أمر غـريب، ذلك الامبراطور المتطاوس انهـار فجأة باكياً وهو يـقول: أرجوك.. أنا أيضا أتعذب من آلاف السـنين بحثاً عن سبب مـعقول لجريمتى النكراء، إننـى لم أقتله فقط، لقد قـتلته أثناء الاحتفال بتسليم القصر أمام رجالى وأمام الشعب كله وأمام كاميرات التليـفزيون والمراسلين الأجانب والمحليين، أنا الذى يطلب منك الإجابة، كل ما أعـرفه أنى أحسست برغبـة لا تقاوم فى قتله أمـام الناس جـمـيـعـاً.. ولكن لمـاذا؟ صـدقنى لا أعـرف وبما أنك استـدعيـتنى من مملكة الحواديت القـديمة لذلك أرجوك، فـسر لى جريمتى.

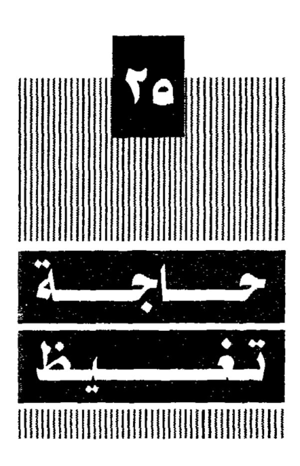
صدقت الـرجل، فقد كـان يدلى باعتـرافه وهو علـى درجة من التـعاسـة لا يمكن تصـورها، كنت أيضاً عـلى يقين من أنه لم يكن « واعيا » بالأسـباب التى دفعتـه لارتكاب هذه الجريمة إذ لم تكن مدرسة التـحليل النفسى قد ظهرت إلى الوجود بعد، لذلـك أجبته: أنا بالفعل أدرك السـبب الذى دفعك لارتكاب هذه الجـريمة، وكان هدفى من التحقيق معك هو الحـصول على اعتراف منك، ولكن بما أنك تجهل السبب لذلك سأوضحه لك..

يا سيـدى الإمبراطـور.. هناك بشر امتـلأت نفوسـهم بـالظلمة والبلادة والعـجز عن الإبداع وأنت منهم أو لعلك أنت عـلم عليهم، العظمة والأفعـال العظيمة تشعرهم بالفزع والرعب من أصـحابها فيبذلون جهـداً كبيراً فى التعتيم عليـهم بل والقضاء عليهم بإنكار

ما أنجزوه. جمال القصر وعظمة معماره وهندسته الفائقة جعلتك تشعر بالضآلة، تلك الضآلة المعذبة التى تحول البشر من أمثالك إلى قتله.. لم يكن هدفك هو سنمار وحده، بل أى سنمار آخر موجود أو سيوجد لذلك لم تقتله سراً، بل علناً أمام الجميع، كانت رسالتك لهم واضحة، أنا ضد الإبداع والمبدعين، أكره هؤلاء الذين يتقنون عملهم إلى هذا الحد لأننى عاجز عن الاتقان ولست راغباً فيه، ها أنتم جميعاً ترون بأعينكم مصير كل من يجرؤ على الإبداع، كونوا عجزة، كونوا بلداء، يجب أن تعجبوا بى أنا وحدى، لا يجب أن يظهر فى هذه البلاد شخص جدير بالإعجاب سواى، أنا العامل الأول، والفلاح الأول والمهندس الأول، أنا سيد البنائين.. كل طاقة الإعجاب فى قلوب البشر لابد أن تكون من نصيبى أنا وحدى،.. أليس هذا هو بالضبط ما فكرت فيه يا سيدى الامبراطور بينما أنت تصدر أوامرك بقتل ذلك العبقرى المسكين؟ ولكن تاريخ الحواديت كان عادلاً عندما ذكر اسمه وتجاهل اسمك.. لا أحد منا يعرف اسمك، نحن نعرف سنمار فقط وسنظل نعرفه للأبد رمزاً للإبداع والإتقان.

قال الامبراطور وهو يرتعش: نعم.. نعم، هذا هو بالضبط ما فكرت فيه وما شعرت به.. هل تسمح لى يا سيدى المحقق بالانصراف والعودة إلى مكانى فى عالم الحواديت القديمة..

وأغلق المحضر وسمحنا له بالانصراف بعد أن وجهنا له الشكر لأنه بفعلته السوداء ساهم فى جعلنا نفهم على نحو أفضل سلوك الطغاة.



كنت أظن أن الشعور بالغيظ أو الإغاظة من أهم ملامح الشخصية المصرية، غير أنى قرأت مقالا للأستاذ شربل داغر بجامعة الكويت يؤكد فيه أن الفعل السياسى بهدف الإغاظة هو سمة عربية، وأن غالبية القرارت العربية التى أدت وتؤدى إلى كوارث تمت بدافع من الغيظ والرغبة فى إغاظة الآخرين.

الغيظ هو درجة عالية من الغضب الانفعالى تدفع صاحبها إلى فعل غير مسئول يدفع الناس ثمنه الفادح فى النهاية، خصوصا عندما يكون الغاضب أو المغتاظ رئيسا يريد أن يغيظ رئيسا آخر. على ضوء هذه النظرية الجديدة نستطيع أن نعيد النظر فى تاريخنا العربى المعاصر لنخرج بفهم صحيح لما حدث ويحدث لنا وحولنا الآن.

لقد طرد الرئيس القذافى العمال المصريين الذين لا يحملون تصاريح عمل أو الذين لا يقيمون إقامة شرعية فى ليبيا. طبعا هو

سمح لهم فى البداية بالدخول والإقامة والعمل بدون تصريح عمل وبدون إقامة رسمية لأنهم مواطنون عرب جاءوا يقيمون فى ضيافة أمين القومية العربية، ولأن الحدود بين البلاد العربية مصطنعة أقامها الاستعمار ابن الكلب. تلك الحدود التى حاول عدة مرات إزالتها بينه وبين مصر بالبلدوزرات لأنها أصلا لا يجب أن توجد. طبعا المفكر السياسى فى هذه الحالة سيغرق ويتوه وسط تحليلات سياسية لا نهاية لها بحثا عن أسباب معقولة لهذا الإجراء. هل هو يخشى الإرهاب الأصولى لذلك قرر التخلص من هؤلاء العمال؟ هل كفر أمين القومية العربية بالعروبة وقرر أخيرا أن تتحول ليبيا إلى بلد أوروبى؟ هل.. هل.. هل؟

مطلقا، المسألة أبسط من ذلك بكثير، الإجابة هى: عاوز يغيظ القيادة السياسية فى مصر.

لماذا؟

■ لأنه متغاظ منها.

– ليه لاسمح الله؟

لأنها فشلت – حتى الآن – فى الضغط على أمريكا وأوروبا لحل مشكلة لوكيربى وفك الحصار عن ليبيا!

الطريف فى الأمر أن عددا كبيرا ومسئولا من البشر يتصورون أن أزمة لوكيربى مشكلة سياسية يمكن حلها بالمباحثات أو بالمناورات أو بالضغوط أو بالتفاهم أو بالفكاكة، ويرفضون فكرة أن أتخن تخين فى أمريكا أو أوروبا عاجز عن حلها لأنها تقع خارج نطاق السلطة التنفيذية أصلا، لا مخلوق على وجه الأرض من صلاحياته إغلاق ملف لوكيربى.

أما طرد الفلسطينيين فالهدف الوحيد منه هو إغاظة الرئيس ياسر عرفات!! أطفال ونساء وشباب ورجال وكهول وعجائز، بشر ينتزعون من بيوتهم ويلقى بهم على الحدود. كل جريمتهم أنهم ولدوا عربا فلسطينيين، كم غنينا من أجلهم، كم حاربنا من أجلهم، كم هزمنا من أجلهم، ولكن هل حدث كل ذلك حقا من أجلهم؟!

بشر مستقرون فى ضيافة أمين القومية العربية من عشرات الأعوام يلقى بهم وسط الرمال فى وحشية لا مثيل لها ولا نسمع كلمة واحدة عنهم من أمين الجامعة العربية، بل إنه ولا كاتب من « المتخصصين » فى نصرة الشعب الفلسطينى طالب بقرار حاسم تتخذه الدول العربية لإنقاذ هؤلاء البشر من ذلك المصير التعس.

عقد الرئيس عرفات اتفاقية مع الإسرائيليين، لتكن هذه الاتفاقية ما تكون. لتكن جيدة أو رديئة، مخلصة أو خائنة، ناجحة أو فاشلة، ما هى مسئولية البشر العاديين عنها؟ لا شىء. المسألة باختصار أن رئيسا عربيا يريد أن يحرج وأن يغيظ رئيسا عربيا آخر وليذهب البشر إلى الجحيم. يا لها من بطاقة تعارف نقدم بها أنفسنا إلى العالم.

لنعد الآن فى الزمن عدة كيلو مترات إلى الوراء. لماذا ذهبت جيوشنا إلى اليمن فى بداية الستينات؟ لنصرة الثورة اليمنية. هذه هى الإجابة التاريخية المعتمدة. وهى إجابة غيرصحيحة، لقد ذهبنا إلى اليمن بشبابنا وأموالنا وجيوشنا لتضيع على الرمال والجبال لكى نغيظ الأسرة المالكة السعودية لأنها بتغيظنا، وعندما قال جمال عبد الناصر أمام العالم كله من خلال الميكروفونات

والكاميرات «أنا حانتف دقن الملك فيصل» فقد كان يعبر بدقة عن الهدف السياسى للمرحلة كلها، عاوز يغيظ الملك فيصل دون أن ينتبه للحد الفاصل بين العمل السياسى وقلة الحياء وانعدام التهذيب، وبغير أن ينتبه إلى أنه يمثل المثل الأعلى أمام شعبه وأن مجرد نطقه لهذه الجملة سيشق طريقاً جديداً قذراً أمام البشر يسود لأجيال.

وفى خطبة أخرى أراد أن يغيظ الملك حسين فبدلاً من أن يقول «عاهل» الأردن قال «عاهر» الأردن بين هتاف الجماهير وصياحها وتهليلها، لقد تحول رئيس الدولة فى لحظة من المثل الأعلى فى التهذيب والحكمة إلى ممثل فكاهى يطلب الإعجاب من المتفرجين بنكتة رخيصة يجرمها قانون الرقابة على المصنفات الفنية الذى يمنع إهانة رؤساء الدول على المسرح، ولكن الغيظ والرغبة فى الإغاظة بالطبع تشلان العقل والتفكير الصحيح.

وصدام حسين غزا إيران لأنه متغاظ منهم، وغزا الكويت لأنه متغاظ من الكوايتة بدليل الوحشية التى عاملهم بها مما لا يتفق وقواعد الضم أو الوحدة أو الاتحاد أو التوحيد أو أى زفت آخر.

وهزيمة ٦٧ أيضاً كانت نتيجة للغيظ، أصدر موشى ديان تصريحاً قال فيه (نحن نحذرالحكومة السورية، إذا لم تمتنع عن إرسال «المخربين» عبر حدودها سنغزو دمشق ونسقط الحكومة) الواقع أن هذا التصريح كان من الممكن أن يمر مرور الكرام ولكنه أضاف جملة يعرف جيداً كم ستغيظ عبد الناصر وهى جملة (لن يمنعنا من ذلك اتفاقية الدفاع المشترك التى عقدها المصريون مع السوريين فهى ليست أكثر من قصاصة ورق)

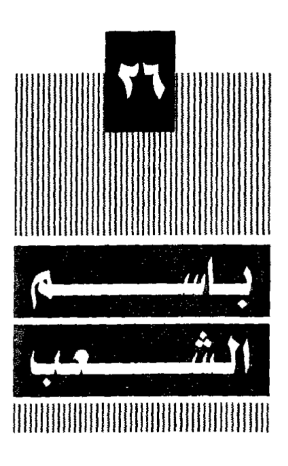
قصاصة ورق يا أولاد الكلب .. طب هه .. على الفور وبدافع من الغيظ الشديد قرر إغاظة إسرائيل و أمريكا، الدليل على ذلك أن جيوشنا احتشدت هناك بدون خطة معروفة مسبقاً لقادة هذه الجيوش .. باختصار، غاظونا وكان لازم نغيظهم.

فى هذه المنطقة الغنية التعسة لا حقوق للبشر، يشعرالرؤساء بالغيظ من رؤساء آخرين فتيجى على دماغنا ودماغ أبونا واللى خلفونا بعد أن تحولت السياسة إلى عمليات غيظ وإغاظة متبادلة بين الحكومات مستبعدة تماماً البشر من حساباتها.

وفى قضية الحرب والسلام وهى أكثر قضايا المنطقة سماجة وسخافة لا أحد يريد أن يحارب ولا يريد أن يسالم، لأن الحرب قد تجلب لنا الدمار لذلك نكتفى بالمناداة بها ودق طبولها ورسم أجوائها لكى نغيظ أطرافا أخرى، والسلام أيضاً قد يحرمنا من فرصة أن نغيظ أو نغتاظ، وبين عمليات الغيظ والإغاظة لا أهمية لمصالح البشر.

هناك مصطلح فى العامية المصرية يقول «فلان ده غياظ» أى أن كل الأفعال التى يقوم بها تكون بهدف أن يسبب غيظاً للآخرين، وأنا متأكد أن هذا التعبير لا مثيل له فى اللغات الأخرى، على الأرجح لأنه لا مثيل لنا على وجه الأرض ..

انظر حولك جيداً لا تنشغل بالبحث عن أسباب حقيقية خلف أى قرار سياسى أو إدارى أو اقتصادى أو اجتماعي، المسألة بسيطة، حد عاوز يغيظ حد ...بس.



قال بطل المسرحية فى أسى وذهول: الحكم الذى صدر بالتفريق بينى وبين زوجتى صدر باسم الشعب، حيث إن الأحكام القضائية فى مصر تصدر باسم الشعب.. والحكم هو عنوان الحقيقة، بل هو الحقيقة ذاتها، وبذلك يكون الشعب المصرى قد انحصرت اهتماماته وتركزت فى حقيقة واحدة هى منعى من معاشرة زوجتى أو الإقامة معها تحت سقف واحد. الشعب المصرى يعاقبنى وزوجتى لأننى قلت إن التصورات السائدة عن الشياطين والملائكة ليست ملزمة للنخبة المفكرة.. فقد يتخيل العالم الملائكة بأجنحة، بينما أتخيلها أنا قادرة على الانتقال من مكان لآخر بغير أجنحة.. قد يتصورون أن الشيطان قادر على التنكر على هيئة قطة أو أرنب، بينما أتخيله أنا قادرا على التنكر فى هيئة موظف عام يأتى من التصرفات بما يدخل البشر دائرة الجحيم..

هناك من يعتقد أن أمريكا هى الشيطان الأعظم، وكان هناك من يعتقد أن الاتحاد السوفيتى هو الشيطان الأعظم، إلى أن اثبت التاريخ أنه الغليان الأعظم، لكل عصر شياطينه ورموزه الشيطانية.. ما هو الصعب فى فهم أن الشيطان هو الفكرة الشريرة التى تعود بالشر على البشر وتمنع عنهم الخير؟! حسنا سأفترض جدلا أن أفكارى خاطئة.. لماذا يهتم الشعب المصرى بعقابى على فكرة خاطئة لم يترتب عليها المزيد من الديون والمزيد من تلويث مصادر المياه والمزيد من البطالة وانخفاض مستوى المعيشة؟! صدقنى أنا أسألك جادا.. فعلى الأقل أنا أدرك أن المفكر الحقيقى لا يزعم اليقين، لست على يقين من صحة أفكارى، وحتى لو كانت أفكارى يقينية.. فهل فعلت بهم ما فعلته شركات توظيف الأموال..؟ لماذا أعاقب هذا العقاب. الغريب الطريف المذهل المؤلم ولأول مرة فى التاريخ؟

- يا عزيزى، أنت تعاقب لأسباب لا صلة لها بالملائكة أو الشياطين.. أنت تهدد النظام العام بالترويج لحزب جديد خطر للغاية هو «النخبة المفكرة على نحو مختلف عن الجماهير».. أنت تهدد مؤسسات كبرى سياسية واجتماعية وصناعية وتجارية وإعلامية يجمع بينها قاسم مشترك أعظم هو التفكير الجماهيرى، هؤلاء سيحاربون بضراوة كل من يسلب منهم حقهم فى الاستمتاع بالعدوان على الحياة فى كل مجال وكل مهنة.. أنت تطالب الآن بأرستقراطية فكرية تتسم بالشجاعة ولا تستسلم لابتزاز الشارع الديماجوجى.

هل تقصد أنه لا توجد فى مصر نخبة مفكرة؟

– هى موجودة بالقطع، فى كل مجتمع وفى كل لحظة تاريخية على الأرض توجد قوى تقدم وقوى تأخر.. السؤال هو: ما هو المكان المخصص لكل منها؟ الألواج أم الترسو؟ كراسى القيادة أم التشعلق على سلالم الترام؟ النخبة المفكرة فى مصر موجودة ولكنها حريصة على ألا تعطى عنوانها لأحد.. تفكيرها منحصر فى حماية ذاتها، هم فى حالة دفاع شرعى عن النفس لا يستوجب اللوم، فصيلة صغيرة تبعثر أفرادها أمام عدو قوى قادر متسلح بكل أدوات الدمار السوقية.. قد يستطيع مفكر النخبة أن يحارب قانونا أو وضعا سياسيا خائبا.. بمقدوره أن يبارز مفكرا آخر ويجد كل منهما لذة فكرية فى الصراع مع الاخر، ولكن لا يوجد مفكر على وجه الأرض قادر على التصدى للابتذال والسوقية وذلك بفضل تكنولوجيا الاتصالات فى العصر الحديث.

■ ماذا تقول؟ التكنولوجيا تساعد على الابتذال؟

– نعم.. هى عندنا تفعل ذلك، فى البداية على الأقل، ولكن فى بلاد المنشأ هى تؤكد حرية الإنسان ونبله، هى اختراعات نبيلة صنعها نبلاء من أجل إتاحة الفرصة أمام البشر للمزيد من تحقيق التقدم.. تحدث الكارثة عندما يقفز عليها الغوغاء ويستخدمونها فى إحداث المزيد من التأخر.. هل تعرف الشطار؟

نعم، الشطار جمع شاطر.. والشاطر هو الشخص الكفء فى عمله..

– غير صحيح، الشاطر هو الحرامى النشال الذى يشطر جيب

الزبون ويخطف محفظته.. الشاطر الآن لا يخطف بطيخة أو محفظة بل يسرق صفحة أو صحيفة، يستولى على كاميرا تليفزيون يصب منها البلاهة على الحياة، يستولى على ميكروفون وجهاز كاسيت يسجل عليه بلاهات مرعبة يصدقها البسطاء، يستولى على جهاز فاكس.. هل كان مخترع الفاكس يتصور للحظة أنه يعطى هدية لا تقدر بمال لعصابات القتلة.

■ بهذا المنهج فى التفكير أنت تحرم أصحاب النشأة المتواضعة - وكلانا منهم - من ارتقاء سلم التحضر والنبل والفروسية.

- لست أنا الذى يحرمهم.. غياب الأرستقراطية المصرية هو الذى يحرمهم.. لابد من مثال نتمنى أن نكونه، لابد من معسكر نبيل نحلم بالانضمام إليه، لابد من وجود أقوياء مقياس قوتهم الوحيد هو العمل على حماية الضعفاء ومن لا ظهر لهم، لابد من حلقات من البشر تتصدى للعمل العام، وتعطى أمثلة للصدق والشجاعة والصراحة والنبل والتهذيب.. وأولا الكفاءة.. إذ لا أهمية للإنسان عندما تنعدم كفاءته.

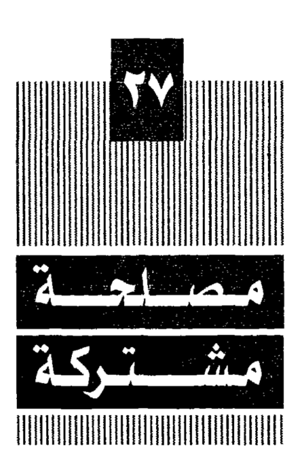
أصارحك بأننى لست مهتما بما تقول بالرغم من أهميته.. أنا مهتم بموضوع الشيطان..

- حسنا.. لنختلف على الهيئة التى يظهر بها.. المهم هو أن نعرف ماذا يعمل الآن؟ وماذا سيفعل؟.. ما رأيك فى ذبح الناس فى المعبد الفرعونى؟.. من تعتقد فى تصورك أنه قادر على التفكير والإيحاء والتنفيذ ثم الافتخار بها فى بيان؟.. من غير الشيطان قادر على فعل ذلك؟.. وإذا كنا نصف بعض الأفعال بأنها شيطانية

بمعنى انهـا من وحى الشـيطان، أو من صنعـه، فـهل تتصـور أن ما حدث فى الأقصر من صنع مخلوق آخر؟

■ من الواضح أنك مكتئب..

- احتمـال.. قد يكون ذلك راجعا لمعـرفتى بأن أخطر شىء فى الوجود هو أن يتنكر أعوان الشيطان فى ثياب جند الله.



حدوتة قديمة من الأدب الشعبى الروسى عن قسيس متشدد فى قرية فى أصقاع سيبيريا، كان يشعر جمهور كنيسته كل يوم أحد بالرعب فقد كان محور موعظته الأساسى هو التحذير من الشيطان وألاعيبه وخبائثه، الموسيقى من صنع الشيطان فلا تسمعوها، الأطعمة اللذيذة أيضا يسكنها الشيطان، الاعتداد بالنفس من صنع الشيطان والبهجة أيضاً من صنعه، كونوا حزانى، كونوا تعساء لتتقوا شره، كل أنواع الفنون الجميلة هى من حيله ليصرف بها أنظار الناس عن العبادة، ابتعدوا عنها..

لسنوات طويلة كان أهل القرية يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد ليشعروا بالفزع والرعب من ذلك الشيطان القادر على التسلل إلى كل زاوية من زوايا حياتهم.

وذات يوم كان القسيس يخترق الغابة مشياً على الأقدام ذاهباً

إلى بيته، وفوجىء بشخص حسن الهندام يقدم له نفسه: اسمح لى أن أعرفك بنفسى يا سيدى.. أنا الشيطان.

تجمدت الدماء فى عروق القسيس من الرعب ولكنه تمالك نفسه وصرخ فيه: إبعد عنى يا ملعون.

فقال الشيطان فى رقة: هل تعتقد أننى قادر على إغوائك يا سيدى.. أنا أعرف مدى صلابتك ومدى كراهيتك لى.. صدقنى أنا أشعر بالوحشة من السير بمفردى فى هذه الغابة.. أرجوك اسمح لى بالسير معك.

وافق القسيس على طلب الشيطان، على الأرجح خوفاً من قدراته الشيطانية ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يستعين منه بالله فى سره. وسارا معاً، وفجأة سقط الشيطان فى حفرة وعجز عن الخروج منها فقد كانت جدرانها ملساء عجز عن أن ينشب مخالبه فيها فقال للقسيس متوسلاً: ساعدنى يا سيدى.. مدلى يدك.. انقذنى. فضحك القسيس منه فى سخرية وقال له: أنا أساعدك؟! أساعد الشيطان؟! هذه فرصة لا تعوض لتخليص البشر منك ومن شرورك.. سأتركك تموت وتتعفن في هذه الحفرة.

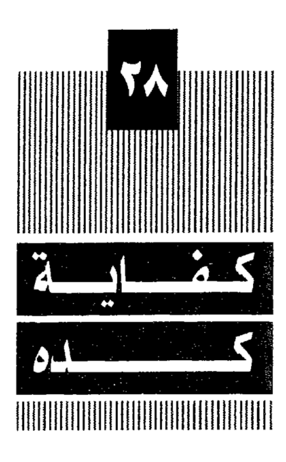
فقال له الشيطان فى لهجة جادة: وعندما أموت أنا.. ماذا ستفعل أنت؟ ماذا ستكون وظيفتك؟ بماذا ستعظ الناس؟ بعد أن أموت أنا، كيف ستكسب عيشك؟ ماذا سيحدث عندما يعرف أهل القرية أن الشيطان المكلف بإفسادهم قد مات؟ هل سيترددون على كنيستك لسماع مواعظك؟ .. انقذنى يا سيدى إذا أردت أن تحافظ على أكل عيشك.

٣٧

حجة الشيطان كانت قوية ولكن القسيس قاوم كلماته المعسولة وقال: سأحدثهم فى موضوعات أخرى.

تساءل الشيطان فى هدوء: ما هى يا سيدى؟ .. هل ستحدثهم عن أهمية الزراعة والتعليم والبحث العلمي، هل ستحدثهم عن حقوق الإنسان، هل ستكلمهم عن أهمية الديموقراطية، أنت متخصص فقط فى ابتزاز الناس وتذكيرهم بى ليل نهار.. أنت عاجز عن دفعهم إلى حب الحياة لأنك فى أعمق أعماقك لا تحبها وترى أنها إثم كبير.. اريدك أيضاً أن تلاحظ أنك لا تجيد أى حرفة أخرى تجلب لك حداً أدنى من احترام أهل القرية.. هل تستطيع العمل حطاباً أو فراناً أو مزارعاً أو حتى حوذياً؟ من فضلك فكر جيداً.. لا حياة لك بدونى.. ساعدنى.. أخرجنى من هذه الحفرة.. انقذنى.

بالرغم من كراهية القسيس الفظيعة للشيطان غير أنه كان ذكياً وواقعياً، لذلك مد له يده وأخرجه من الحفرة، وسارا معاً فى الغابة يدردشان في ود.



أنا واحد من سكان المنطقة تصادف أن كان مصريا وكم أعتز بهذه الصدفة، وإذا كان من المحتمل الشك فى كل الحقائق، غير أنه من المؤكد أننا نعترف بأمر واحد هو أننا جميعا نولد فى أماكن اختارها لنا آباؤنا.

وحقيقة أخرى لا سبيل إلى الشك فيها هى أن هؤلاء الذين يعيشون على هذا الكوكب ولدوا عليه، وأنهم يكونون نوعا يرى نفسه ممتازا، اصطلح على تسميته بالجنس البشرى أو الإنسان تفرقة له عن أقاربه البعيدين الذين ولدوا معه على نفس الكوكب، والذين أسماهم الحيوانات ومفردها حيوان. لدى ما يدعونى للاعتقاد بأن الإنسان راقب باهتمام سلوك أقاربه من الحيوانات فاكتشف أنهم يأكلون بعضهم البعض عندما يجوعون أو عندما يشعرون بالفزع أو بدافع من الرغبة فى التسلية وما تنتجه من

لذة. وذات لحظة، ولسبب لم نتعرف على مصدره حتى الآن بدقة، قرر ألا يجوع وألا يشعر بالفزع وأن يمتنع عن التسلية بقتل الآخرين وأن يمنع الآخرين من التسلية بقتله، وهنا بدأت رحلة الإنسان الطويلة فى البحث عن مصادر للثروة غير ملطخة بالدماء.

الزراعة أبعدت عنه الجوع، أما الفزع فيبدو أنه اتفق مع بقية أبناء نوعه على الاكتفاء بالفزع الناتج عن الكوارث الطبيعية والحيوانات المتوحشة والزواحف السامة والحشرات القاتلة. سجلات التاريخ لم تذكر لنا بالضبط فى أى غابة أو أمام أى كهف قال الإنسان الأول لزميله: يا إنسان.

بالتأكيد لم تكن كلمة السيد أو الأستاذ أو يا حضرة أو زميلى أو يا رفيق قد اخترعت بعد.

قال له: يا إنسان.. أنا أشعر بالخوف منك.

فرد عليه: وأنا أيضاً أشعر بالخوف منك.

فرد عليه: أنا أكرهك بشدة.

فرد عليه: وأنا أيضاً اكرهك بشدة.

فرد عليه: أنا أشك فى نواياك.

فرد عليه: وأنا أيضا أشك فى نواياك.

فرد عليه: أنا أفكر فى الاستيلاء على حقلك وزوجاتك وطيورك الداجنة وحيواناتك الأليفة واستعباد أطفالك وقتلك..

فرد عليه: يالها من صدفة سعيدة وتوارد خواطر جميل.. تصور أننى أيضا أفكر فى نفس الشيء!

فى ذلك اللقاء شعرا بقدر من الفرحة بعد أن اكتشفا صفة

مشتركة تجمع بينهما، كل منهما يفكر فى القضاء على الآخر.

جلسا معا أمام الكهف يتسامران، أخذ كل منهما يشرح للآخر فى نشوة تفاصيل الطريقة التى ينوى تمزيقه بها. لم ينجح أحدهما فى القضاء على الآخر فقد كانا حذرين للغاية، وربما اكتشفا سخافة ما يفكران فيه.

وفى اللقاء الثانى بعد عدة أيام أو بعد آلاف من السنين لم يناده: يا إنسان.. فقد كان يعرفه، لذلك ناداه: يا هذا الذى أعرفه.

أعرف أن القصة لم تحدث بهذه البساطة وهذا الوضوح إذ لم تكن اللغة قد اخترعت بعد، وإذا كان لدينا تسجيل واضح لما دار فى جلسة لقائهما الأول لاكتشفنا أصواتا فقط، أصواتا مفزوعة مبهمة غامضة وحشية. قال الأول: عا.... عووووا

فرد عليها الثانى: عا عى... عووووا

وفشل اللقاء، كان لابد من أن يفشل اللقاء بينهما لأن اللغة لم تكن قد اخترعت بعد.. فى غياب اللغة لابد أن يفشل أى لقاء، ثم اخترع الإنسان اللغة، ولكنه لسبب غامض لم يصدرها للمنطقة العربية، اكتفى بتصدير المخترعات الحديثة ولكنه لم يصدر لنا اللغة لسبب بسيط، أن اللغة لابد أن تكون اختراعا محليا من اختراعنا نحن.

اسمحوا لى أن أعلن بكل تهور: نحن لم نعرف اللغة بعد، نحن مازلنا فى مرحلة العووووا ... عاووووى... ترالم... ترلعلع... تتكمعو ... فس... عا.

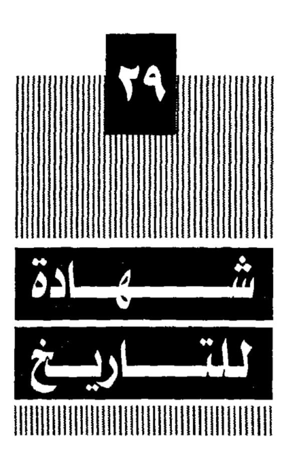
وماذا عن اللغة العربية، أليست لغة مثل الأنجليزية والفرنسية؟

نعم، توجد لغة عربية ولكن لا يوجد من يتكلمها، نحن لا نتكلمها، نحن نستخدمها فقط.. كما يستخدم الناس الجوارى والعبيد، وكما يستخدم النشالون المطاوى وكما يستخدم الإرهابيون الديناميت، أو نلعب بها كما يلعب أطفال الحوارى بالوحل.

نحن نعامل اللغة باحتقار وقلة حياء وعدمية، نستخدمها فقط فى التنفيس عن عدواننا فى إطار من الإبهام والمراوغة فتكون النتيجة أن كل ما نقوله يتسم بالبلاهة والشر، ولا ينتج عنه على الصعيد العملى إلا كل ما هو شرير ومدمر.

وفى الوقت الذى تستخدم فيه شعوب الأرض لغاتها للإحاطة بالحقيقة وإعلانها واكتشاف المجهول والعظيم والجميل فى هذا العالم بشجاعة، نستخدمها نحن كسياج نحمى به أنفسنا من الواقع والحقيقة ونحفر بها نفقا تحت الأرض يوصلنا إلى أكثر أماكن العالم إظلاما.

انظر حولك، اقرأ لمن حولك، كم عدد الكُتاب الذين يطلبون منك كراهية الآخر؟ كم عدد الكُتاب الذين يملأونك غصبا بالشر والغباء وكأنهم محطات تموين إجبارية على طريق الحياة؟



هذه شهادتى عن المظاهرة، التى حدثت على مقهى «ريش» بشارع طلعت حرب، يوم أن ذهب الرئيس «السادات» إلى القدس عام ١٩٧٧. كان رأيى المعلن فى ذلك اليوم، وما يزال هو أن هذه المبادرة، تعد من أكثر الأفعال السياسية إبداعاً، وواقعية وشجاعة. بعض زملائى وافقونى على رأيى سراً، والبعض الآخر لم يتحملوا الصدمة.. من بين الذين أصابتهم المبادرة بصدمة مروعة، كان الزميل «إبراهيم. م» وهو ناقد ومترجم، استولت عليه حالة عصبية مخيفة، تصورت معها أنه على وشك أن يموت.. صاح فى رواد المقهى: «بكرة اليهود ييجوا يقعدوا معاكم على القهوة دى.. ويخلصوا عليكم».

ثم صاح موجهاً حديثه للمارة فى شارع طلعت حرب: «أنور السادات ذهب إلى القدس بمفرده، هو لا يمثل إلا نفسه، الشعب

المصرى ليس معه.. أنا لست معه» .

ثم قرر أن يقوم بمظاهرة، المظاهرة فى حاجة إلى لافتة واحدة على الأقل، خصوصاً عندما يقوم بها شخص واحد. واللافتة فى حاجة إلى متر دمور أو بفتة، أو مترين، وبعد فاصل من السباب الموجه لشخصى، قال لى بعصبية: هات ريال.

– إهدأ يا إبراهيم.

– هات ريال عشان اشترى متر دمور.

– حاضر.. بس اهدأ.. ساعطيك جنيهاً وليس ريالاً، بشرط أن تشرب به مشروبات.. لأننى لو أعطيتك ثمن قماش اللافتة، فمن المحتمل أن توجه لى تهمة «تمويل» مظاهرة ضد النظام.. إهدأ يا عزيزى..

فأكمل شتائمه (فيما بعد وفى يومياته فى جريدة العربى الناصرى كتب الزميل القصاص «محمد البساطى» واصفاً ذلك اليوم، ثم دخل علينا «على سالم» ومعه علبة سجائر أجنبية وولاعة وتلوح على وجهه علامات الغذاء الجيد، وأنا أعترف بالتهم الثلاث بالرغم من شناعتها). الغريب أنه ولا واحد من مثقفى «ريش» أخرج الريال المطلوب. واختفى «إبراهيم»، فى الغالب عاد إلى مقهى «زهرة البستان» ثم ظهر بعد حوالى نصف ساعة ومعه فوطة صفراء، من النوع الذى يستخدم فى تنظيف السيارات، من الواضح أن الحركة الثقافية المعارضة لمبادرة «السادات»، قررت ألا تدفع الريال المطلوب. كان «إبراهيم» أكثر هدوءاً وتماسكاً بل وأقرب للمرح، جلس وبعض الزملاء إلى مائدة مجاورة، وفرد

الفوطة استعداداً للكتابة عليهـا، وأمسك بالقلم «الفلوماستر» وأخذ يفكر بصـوت مسـمـوع فى الشـعـار المطلوب: «نحن المصـريين نعلن..».

ثم توقف وقـال ضـاحكا: من أنا حـتى أتكلم بـاسم الشـعب المصرى؟ الشعب المصرى لم يفـوضنى.. لابد من البحث عن شعار آخر. استـعرض عدداً من الشـعارات تم استبعـادها جميعـاً، لعدم ملاءمتها للغرض، كانت الجلسة يخيم عليها جو من المرح والعبثية. كانت الساعة الخامسة - تقـريباً - بعد الظهر، عندما انصرفت من المقهى أنا والروائى «خـيرى شلبى»، عندما عدت فى المسـاء، أكمل لى «أحمد» السفرجى ما حدث.

بعض الشـبان من خـارج مجتـمع «ريش» جاءوا وجلـسوا مع «إبراهيم»، كان مـعه الناقد «إبـراهيم. ف». الشبان الأغـراب كانوا من رجال المبـاحث، أثناء الحوار الدائر بينهم دخل المرحوم «سـيد موسـى»، وهو كـاتب درامى وسيناريست وإنسـان ظريف، همس «أحمـد» السفـرجى فى أذنه: زوغ أنت دلوقت يا أسـتاذ «سـيد».. القـهـوة «مـتلبـشـة» مـبـاحث.. أهم قـاعـديـن مع «إبراهيم. م»، و«إبراهيم.ف».

- فـرد عليه سـيد: أزوغ؟.. ده أنا أحب الحـاجات دى قـوى.. عاوز أتفرج.

جلس معهم وطلب مشروباً، واحد من الشبان الأغراب، قال له: خلص مشروبك وحاسب دلوقت يا أستاذ «سيد».

- لا.. أصل أنا قاعد.. لسه حاطلب طلبات ثانية.

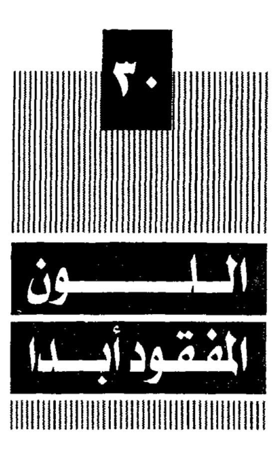
- لا.. حضرتك مش حاتطلب حاجة.. لأنك حاتقوم معانا.

وتم القبض على المجموعة ونقلت فى سيارة كانت جاهزة فى مكان قريب. أكمل لى المرحوم «سيد موسى» القصة فيما بعد: لما وصلنا الداخلية فوجئت بالإبراهيمين يتبادلان سلامات وتحيات حارة، مع رجال أمن الدولة.. اتضح أنها عشرة قديمة، واحد من كبار الضباط، قال لإبراهيم صاحب مشروع المظاهرة: أنا قاعد أتابعك من الصبح، وأنت بتتحرك من قهوة لقهوة طول النهار، وأقول: حايتهد.. مابتتهدش، وأخيراً اضطريت أجيبك.. أما أنا (الكلام للمرحوم سيد)، فقد قلت لهم: اسمعوا يا حضرات، والله بودى أن أقضى معكم أى وقت، ولكن لدى الليلة موعداً مع منتج فى كافتريا «الكورسال» فى الحادية عشرة مساء، وسأقبض منه عربوناً.. لست مهتماً بأى شىء فى الدنيا سوى هذا العربون.

فردوا علىّ: اطمئن سنتركك قبل الموعد.

وبالفعل أوصلونى قبل الموعد بسيارة من عندهم.

ما حدث بعد ذلك لم أكن شاهد عيان له، والمصدر الوحيد لمعرفته، هو الإبراهيمان، وملفات أمن الدولة بالطبع، أما إغلاق مقهى ريش (من أجل التحسينات) فقد حدث فى الثمانينات وليس يوم المبادرة، كما ذكر فى بعض الصحف. هذه هى قصة المظاهرة الوحيدة، التى قام بها المثقفون، احتجاجاً على مبادرة «السادات»، هذه هى شهادتى للتاريخ.



واحد من خلق الله ربما كان مثقفاً ثورياً، دوخ أهله عند الأطباء ومراكز الأشعة ومعامل التحليل، كان يشعر بآلام شديدة فى بطنه شُخصت على أنها برد فى المعدة أو عسر هضم أو... أو... غير أنه كان مصراً على قول غريب: توجد قطة فى بطنه.

ليس مهماً الإجابة المنطقية عن السؤال كيف وصلت هذه القطة إلى جوفه؟ المهم أنه كان يعانى من ذلك. إلى أن وصل أهله به إلى طبيب حاذق حاد الذكاء، تحسس بطنه بأصابعه فى مهارة ثم قال: يؤسفنى أن تشخيصه صحيح، توجد قطة بالفعل فى بطنه ولابد من إخراجها بعملية جراحية فوراً.

سأله أحد المرافقين من أسرة المريض: ولكن كيف وصلت هذه القطة إلى بطنه؟

أجاب الطبيب الذى يبدو أنه كان خبيراً فى الطب السياسى: للأجهزة العالمية ألاعيب مروعة، ولديهم من العلم ما يمكنهم من

فعل أى شىء فى البشـر، من الواضح أن أخينا معاد للإمـبريالية والاسـتـعمـار بل على الأرجح هو من مـشجـعى الثورة الثـقافـية الماوية.. ربما أرادوا أن يعاقـبوه على ذلك فوضـعوا تلك القطة فى بطنه بطريقة لم نكتشفها بعد.

شعر أخونا المريض المثـقف الثورى بالراحة، فعلى الأقل ها هو يجـد من يصـدقـه. على الفور تم إعـداد غـرفـة العمليـات ثم تم تخـديره وقطع الطبـيب فى جلد البطن قطعـاً كبـيـراً سطحيـاً ثم أخاطه. وعندما أفـاق صـاحبنا من البنج وجد أفـراد أسـرته واقفين حول سريره يبتسمون فى سعادة، كان الطبيب يقف بينـهم وهو لا يقل عنهم سعادة.

سـألهم صـاحبنا بصـوت واهن: هل أخرجتم القطة؟

رد الطبيب: طبعاً.. ها هى.

ومدله يـده بقطة بيضـاء صغيـرة لطيفـة، وهنا نظر صاحـبنا بتعاسـة إلى القطة وانهار باكياً وهو يقول: لا.. ليست هذه.. الثانية لونها بنى.

●●●

من المستـحيل الوصـول إلى نتـائج منطقية عقـلية طبيعـية مع هؤلاء الذين يـشكون من وجـود القطـط فى جـوفـهم. حـتى لو أخرجت لهم قططاً من كل الألوان سيظل هناك لون يتبجحون بأنه ناقص، تماماً مثل سيناء التى حصلنا عليها ناقصة السيادة.

أى شـخص عادى تـوجد بداخله حـقـول وحدائـق وبحيـرات ونجوم وشموس وأقمار، أمـا المثقف الثورى الماوى فتوجد بداخله وفى ثنايا عـقله رشاشـات ومـدافع ميـدان ومدرعات ومـعتـقلات

وكرابيج وأسلاك شائكة وتماسيح وكلاب مسعورة وذئاب وثعالب، عندما ينظر خارج جلده ولا يجد نظيراً لما بداخله يصرخ: نعم.. لقد استرد السادات سيناء ولكن ناقصة السيادة.

السيادة هى المدرعات، لا داعى للمزارع والحقول والمدن السياحية وكل مشاريع الرى وزراعة الصحراء ومحطات تحلية المياه فهذه كلها علامات على نقص السيادة، المدرعات فقط هى العلامة الأكيدة على السيادة، لابد من دبابة ذات مدفع طويل ولابد من زعيم يطل من برجها ويخطب ببلاغة موسولينية بينما هو يضع يده على ماسورة المدفع، عندها فقط نشعر بأننا أسياد على سيناء. ولو أن اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية كانت تسمح بألف مدرعة ومليون جندى فى سيناء، كانوا أيضاً سيصرخون: هل هذه الأعداد كافية لحماية سيناء؟ إن تحديد العدد فى حد ذاته دليل على نقص السيادة...

قبل ١٩٦٧ لم يكن من حق أى مصرى أن يزور سيناء إلا بعد الحصول على تصريح من المخابرات العسكرية، من تعرف هناك؟ .. من ستقابل؟

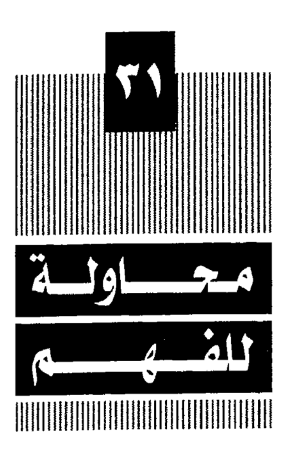
وتكون الاجابة دائماً هى: أنا ذاهب إلى غزة، لشراء بعض السلع.

كانت غزة فى هذه الفترة مصدراً لكل أنواع السلع المهربة.. مهربة من أين؟ لا أحد من المثقفين الماويين لديه الشجاعة ليعترف بمصدر هذه السلع. نحن الآن نستطيع الذهاب إلى سيناء بغير تصاريح من أى نوع تماماً كما نذهب إلى طنطا والمنصورة، إن أكبر قدر من فساد الضمير والعماء المتعمد لا يحجبان حقيقة

واضحة هى أنه لم يحدث أن مارس المصريون سيادتهم على سيناء إلا بعد تحريرها بالحرب والسلام. إننى أتحدى أى مثقف ثورى أن يقول إنه كان يعرف مكاناً يسمى شرم الشيخ ودهب ونوييع وطابا على أرض مصر، هذه أسماء لأماكن ساحرة على أرض مصر لم نكن ندرى عن وجودها شيئا. الآن فقط نحن أسياد فى وعلى سيناء، نزرعها، نقيم فيها المشاريع والمدن السياحية ومع ذلك تظل سيناء ناقصة السيادة لسبب بسيط أن القطة المطلوب إخراجها من بطونهم لونها بنى.

ومن غرائب الأمور أنه بعد تحرير سيناء كانت مقولتهم الشائعة هى لايجب إعمار سيناء لأنها من الناحية الاستراتيجية (كذا) لا يمكن الدفاع عنها، لا داعى لإنفاق المليارات لتعميرها ثم يأتى الاسرائيليون بعد ذلك ليحتلوها فى حرب قادمة. وبالرغم من أن هذا المنطق لا يستحق مجرد التوقف عنده للحظة واحدة إلا أنه كان سائداً فى أوساط المثقفين الثوريين كأحد الأدلة على ذكائهم الحاد أو حبهم العظيم للخراب.

أما حكاية أن اسرائيل عرضت على جمال عبد الناصر أن ترد له سيناء عام ١٩٦٨ فرفض، فهى الأخرى حكاية سيئة التأليف الهدف منها هو (ما هى هذه السيناء التى تفخرون بأنكم حصلتم عليها، لقد عرضت علينا قبلكم بعشرة أعوام ورفضنا) والرد الوحيد على هذه الحكاية هو: قد نصدق إن الحدأة تلقى كتاكيت، وبالتالى نصدق أن اسرائيل عرضت سيناء عليكم عام ٦٨ فلماذا رفضتم؟ الأنكم لستم فى حاجة إليها، ولماذا لم تسألوا الشعب المصرى أيامها؟ إذا كنتم أنتم لا تريدون سيناء إلا أن الشعب المصرى بالقطع يريدها.



٣١ محاولة للفهم

كثـر الحديث هذه الأيام عـن «الشارع العـربى» و«الجماهـير» و«الرأى العام» يلقى بهـا الكتاب فى ثقة فى وجوه القـراء وكأنها معـالم شهـيرة عـلى وجه الأرض نعـرف جمـيعـاً مادتهـا الخام ومواقعـها وأبعادها وطولها وعرضهـا وكيفية الوصول إليـها. قد تكون كذلك ولكن ليس بالنسبة لي، فحتى الآن أنا عاجز عن الإلمام بتلك المقولات فضلاً عن الإمساك بها.

قد يـتطرق إلى ذهنك أننى أعيش فى برج بعـيداً عن الـشارع، الواقع أننى عشت حـياتى لا أترك «الشارع» إلا فى سـاعات النوم فقط لأسباب خارجة عن إرادتى أى أن لحظات اليقظة عندى تعنى ببسـاطة «الشارع» ومع ذلك فـأنا.عاجز عن فـهم ماذا يقـصدون بالشـارع العـربى؟! ولماذا لا نقـرأ لكتـاب يتكلمـون عن الشـارع الإنجليـزى أو الشـارع الهـولندى أو الشازع الـدانمركى هل تخلو

هذه المدن من الشوارع؟

ومن نقصد بالجماهير؟ سكان المدن؟ سكان القري؟ سكان الصحف؟ سكان الأحزاب؟ قاطنى النقابات والجمعيات الأدبية الثورية؟ وماذا تريد هذه الجماهير؟ وماالذى تتوق إليه؟ هل تريد الحرية؟ الاستبداد؟ الطعام؟ العمل؟ النظام؟ الفوضي؟

وهل لحركة الجماهير مواسم معينة مثل الفيضان وهجرة الطيور مثلاً؟ وهل تتحرك بدافع من النشوة أم من فرط الألم، هل هى تتحرك بدافع ذاتى داخلى أم بدافع خارجي؟ ولماذا تتحرك هذه الجماهير ألماً من أجل الأطفال الجائعين فى بلد عربى وتسكن حركتها فى حال ذبح الأطفال فى بلد عربى آخر؟! وهل هذه الجماهير هى نفسها الغوغاء التى طالما ذكرت فى الأدبيات القديمة، أم أنها مختلفة عنها وماوجه التشابه بينها وما أوجه الاختلاف؟

وما هو بالضبط هذا «الرأى العام» هل يمكن للرأى أن يكون عاماً؟ هل هو رأى يستند إلى المعلومات والإحصاءات، أم يستند إلي الحدس الجمعى أم يصدر عن الانفعالات من يأس وألم وغضب؟!

وما هو دور الرأى الخاص فى تشكيل الرأى العام، هل هناك احتمال أن الرأى العام ليس إلا رأياً خاصاً تم رشّه فى ذكاء وخبث على عقول البشر فتخمر وأصبح عاماً وضاغطاً ومؤثراً حتى على الرأى الخاص الذى كانه. أذكر فى أيام الاحتلال الإنجليزى لمصر وفى أيام «احتلالات» أخرى، كان يوجد فى وزارة الداخلية قسمان متجاوران، الأول «لتوجيه» الرأى العام

والثانى «لقياس» هذا الرأى العام. الأول يرسل برجاله إلى المقاهى وأماكن التجمعات البشرية ينشرون الآراء التى تريد الحكومة جعلها عامة وبعد ذلك يبدأ القسم الثانى في قياس هذه الآراء بعد أن أصبحت عامة ثم يرفع تقاريره إلى الحكومة ليكون ركيزة لها وسنداً فى صنع القرار السياسي، وعندما تقرأالحكومة هذه التقارير وهى سرية بطبيعتها تشعر بالارتياح والغبطة بعد أن تكتشف أن رأيها متطابق تماماً مع الرأى العام فى الشارع.

أخشى أن تفهم من كلامى أن الرأى العام فى بلادنا ليس أكثر من إدارة حكومية هائلة الحجم يعمل فيها آلاف الأقلام والميكروفونات والكاميرات، وحش هائل الحجم يتغذى يومياً بعدة مئات الأطنان من الورق والأحبار ويتنفس موجات وهواء الأثير، ماكينة ضخمة تعمل ليل نهار على بث رأى الحكومة لتحويله إلى رأى عام، قد تستند فى فهمك هذا إلى أننا مولعون بكل ما هو عام وعامة وعموم. الهيئة العامة لكذا، الإدارة العامة، المؤسسة العامة، الشئون العامة، المشرف العام، المفتش العام، المدير العام، كل ما هو "عام" هو ملك للحكومة، فكيف يستثنى الرأى العام من ذلك؟ هذه مسألة غريزية بحتة لا صلة لها بالسياسة ونظم الحكم. قد يكون فهمك خاطئاً وقد يكون صحيحاً، ومع ذلك، صدقنى ليس لدى قول فصل فى هذه الأمور، أنا مجرد كاتب ينقصه اليقين وبى رغبة أكيدة فى البحث عما تعنيه هذه المصطلحات. ولكى لانزعج رجال السياسة الذين يغضبهم أن يتحدث أولاد الشوارع عما يحدث فى الشارع، فإننا لن نتحرك على أرضهم بل سنحصر

بحثنا فى ذلك المثلث الضيق المحصور بين عالمهم السخيف وعالم الفن الممتع وعلم النفس الجمعى المدهش.

أزعم أن أقدم وثيقة فى التاريخ تشير إلى « قياس الرأى العام » كانت تلك البردية الشهيرة التى اصطلح على تسميتها بـ « شكاوى الفلاح الفصيح » وإن كنت أفضل كلمة «عرضحالات» (٢٥٠٠ ق.م.) السير والاس بادج،
"Egyptian Tales and Romances"

تقول البردية «حدث أن أحد الفلاحين من وادى النطرون حمّل ستة حمير بكل مالذ وطاب من ثمار ومنتوجات الواحة التى يسكنها وقادها إلى «منف» ليبيع فيها بضاعته، ولكن واحداً من المسئولين عن مزارع حاكم الإقليم طمع فى بضاعة الرجل فاستولى عليها بما فيها الحمير وحجته فى ذلك أن حماراً قليل الحياء عديم الانضباط قضم عدة أوراق خضراء من حقله وعقاباً له بوصفه مسؤولاً عن سلوك حماره كان لابد من مصادرة كل أملاكه. وقف الفلاح أمام المسئول اللص بثبات محتجاً ومطالباً بحقه، ثم تعالت صيحاته ففقد المسئول اللص أعصابه فضربه وهو يصيح فيه مستنكراً: إخرس .. ألا تعلم إنك هنا فى وادى السكوت المقدس؟!

وهنا يرد عليه الفلاح المسروق فى سخرية: "حسناً ياسيدي، اعطنى حميرى وخذ سكوتك .. هل تسرق منى حميرى وبضاعتى وتريد أن تسرق منى صوتى أيضاً"

لا فائدة، الرجل مصمم على سرقته، وهنا يقوله له الفلاح بثقة

وهدوء: "حسناً، أنا أعرف صاحب هذه المزارع، إنه حاكم الإقليم، أعرف أنه عادل وعظيم، لقد طهّر هذه الناحية من اللصوص وقطاع الطرق.. وأنا واثق أنه لن يرضى بأن أسرق فى زمامه".

(فيما بعد، ولآلاف السنين سيتخذ المسرح المصرى نفس المسار، الحاكم عادل ولكن حوله مجموعة من اللصوص غلاظ القلوب، وهوبالتأكيد يجهل أنهم كذلك) ويذهب الفلاح لحاكم الإقليم ويبدأ فى «عرضحاله» الأول، بدأ فى عرض قضيته فى بلاغة وجمال وحرارة وأيضاً فى إطار قوى من النفاق «أنت بين الأغنياء أغناهم، وأنت الزوج لكل أرملة والأب لكل يتيم، أيها الممدوح من كل هؤلاء الذين يمدحهم المادحون»

بعد أن انتهى من عرضحاله الأول ذهب الحاكم من فوره إلى الملك : مولاي.. واحد من المسئولين عندى سرق فلاحاً (كذا....) ولكنه فلاح فصيح ومثقف لدرجة تدعو للإعجاب.

فيرد عليه الملك : «إذا كنت تريد إرضائى، لاتقم بحل مشكلته.. دعه يتكلم، دعه يفصح عما فى نفسه وكلف شخصاً بكتابة كل حرف يقوله وارفعه لى يومياً، وارسل له بطعامه يومياً مع واحد من أصدقائه المقربين».

بعد ذلك أرسل الملك بخطاب سرى (هذا ماتقوله البردية) إلى حاكم وادى النطرون يطلب منه إمداد أسرة الرجل بما تحتاجه من طعام بغير أن تعرف مصدره . لاشك أن الملك بخبرته الطويلة عانى من غموض تقارير معاونيه وأجهزته وتضاربها، ولاشك أنه رأى فى حكاية هذا الفلاح فرصة غاية الأهمية للتعرف على

ما يحدث في بلده، لا أحد بارعا في الإفصاح عن الألم العام سوى المبدع ذى الألم الخاص. هو لا يريد الاستمتاع بفصاحة وبلاغة الفلاح وإلا لكان أعطاه منحة تفرغ يكتب فيها رواية مليئة بالحكم والعبر. ولكنه يريد أن يتعرف على آلامه التى هى بالتأكيد آلام شعبه، فحالته ليست شاذة أو استثنائية بالتأكيد، ليست حميره وحدها التى يسرقها المسئولون، هناك مليون فلاح يسرق كل يوم، السؤال هو: هل يصلح أى منهم مصدراً للتعرف على الرأى العام؟

لنقترب أكثر من ذلك الفلاح لنتعرف على ملامحه، هو فلاح، وضحية، ومتألم، ولكن أهم ما يميزه هو أنه مبدع، لديه القدرة على التعبير عن ذلك كله بوضوح، وقادر أيضاً على تجاوز آلامه الخاصة والانشغال بالهموم العامة وبالفعل ستجده فى عرضحالاته التالية يتكلم عن موازين العدل فى المجتمع نفسه ولا يركز كثيراً على مشكلته إلا بالقدر الذى يتيح له النفاذ منها إلى مشاكل المجتمع الزراعى ودور البيروقراطية فى تفاقمها، أتصور أن الملك كان على وعى بأن الحقيقة تولد عند الفرد وتموت تحت أقدام الجماهير، وأنه عندما تندفع «الجماهير» إلى الشارع فى حالة قصوى من التعاسة أو الغضب أو الألم فلابد أن يسقط بعض القتلى تحت الأقدام وبينهم ستعثر على جثة الحقيقة. كان الملك مهتماً أيضاً بأن يعرف وهذا أمر جميل، الرغبة فى المعرفة هى أهم ما يميز رجل الدولة، ومشكلة رجال الدولة فى الديكتاتوريات أنهم ليسوا فى حاجة للمعرفة بعد أن استعاضوا عنها بالرسالة المقدسة، لذلك يفاجأون بحسابات الواقع ودروعه

وعواصفه وثعالبه.

قد نتساءل: لماذا لا يصدر الملك قراراً بتعيين ذلك الفلاح الفصيح مستشاراً لديه؟ ألا يضمن بذلك أن يزوده بتقارير حقيقية موضوعية عما يحدث فى الشارع؟

الواقع أن الملك أحكم من أن يقع فى هذا الخطأ، ففى دائرة الحكم الباردة الشرسة وحولك عشرات الأفراد الأقوياء من أصحاب الآراء والأفكار التى تستند إلى النفاق والتذاكي، حتما ستفقد حريتك فى التعبير عما تراه صحيحاً وستحاول دائماً أن تتفادى ذكر الحقيقة كاملة مكتفياً بذكر شريحة منها لا يختلف عليها أحد لكى لا تغضب عشاق الباطل فى دائرة الحكم فتخسر السلطة والنفوذ والفلوس وتتحول إلى أقل من لاشىء، لنفرض أنك شخصياً كنت عنترة بن شداد أو شخصاً آخر يفوقه قوة وشجاعة، هل كان من الممكن أن تصارح قيادتك السياسية فى الثلث الأخير من شهر مايو ١٩٦٧ بأنها ترتكب خطأً مروعاً بحشد قواتها المسلحة فى صحراء سيناء بلا خطة أو هدف واضح، وأن فارق التكنولوجيا بينها وبين قوات العدو ستكون كفيلة بتدميرها فى ساعات عدة؟ من المستحيل أن تفعل ذلك بعد أن تحرك الشارع واستولت عليه حُمى الحماسة لتمزيق العدو. لا مفر من الاعتراف بأن الرأى الصواب يختفى يأساً أو خوفاً عند ارتفاع درجة حرارة الشارع إلى حد الهلوسة.

لذلك سنجد أن رجل السياسة المحترف الملتحق بالأنظمة الشمولية يرى لدواعٍ عملية تماماً أن ذكر الحقيقة حماقة كبرى

وأن التعـبيربصـدق عما يشـعر به هو انعدام للكفـاءة السياسـية وبالممارسة المستمرة للكذب يفقد نهائياً القدرة على «غربلة» الواقع والتعـرف على ما هو صواب كمـا تتعطل بداخله ماكينة الـشعور فيترتب على ذلك ضـرورة أن يُملأ كل صباح بالحقيقـة المفترضة والشعور الواجب إعلانه تماماً كالساعات القديمة ذات الزنبرك .

عودة للفلاح الفصيح، إذا كانت هذه البردية تذكر لأول مرة فى التاريخ ما يسمى بتقـارير الرأى العام، فلا شك أنها تكشف أيضاً عن قدم ورسوخ الشق السرى فى العمل الأمنى فى مصر القديمة، فبعد آلاف الـسنين سنقرأ عما يسميـه رجال الأمن «تمويل المصدر بدون معرفتـه» والعمل على توفير المعيشـة له ولأسرته فى حدها الأدنى، طعامـه هو سيمده به «صـديق» وطعام الأسرة سـترسله الإدارة المحلية بناء على خطاب سري، المهم أن يتـفرغ هذا المصدر للكلام فتعرف القيادة السياسية ما خفى عنها.

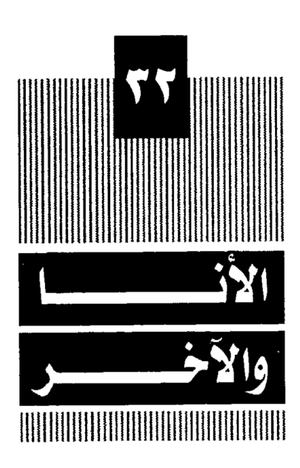
سؤال: هل من المستحيل أن تُجمع الجماهير الفَرِحة أو الغاضبة على رأى صواب، بمعنى أنه فى صالح الجماعة؟

الإجابة: نعم، من الممكن فى حـالة واحدة فقط هى تنفـيذ قرار اتخذه العقل الجـمعى تماماً كما حدث فى مـصر فى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ . لقد خرجت الناس جميعا من إسكندرية إلى أسوان تطالب عبـد الناصر بألا يتنحى عن السـلطة. وإذا كانت لكل حقـيقـة عدة أوجـه صحـيحـة فسنخـتار نـحن الوجه الذى يقـول، لقد تحـرك الشعب المصرى ليس لإبقاء عبد الناصر فى السلطة ولكن لمنعه من التخلى عنها، لم تخرج الناس تأييـداً لشخص بل لمحاصرته ومنعه

من مـغادرة مكانه، كـان هو الربّان الوحـيـد وكانت كل الخـرائط الملاحية فى جيبه هو فكيف يبحرون بدونه والقارب مهدد بالغرق، كان صاحب المولد، كيف يتـركونه يمشى قبل أن ينفض هذا المولد، كان هذا الشعور المر بالاستنكار هـو السبب العميق لخروج الناس إلى الشـارع، وهذا هو بالضبط مـا عبرت عنـه نكتتان ظهـرتا فى ذلك الوقت، الأولى تقـول أن الناس كـانت تهتف فى سـرها (أ...) (أ...) لا تتنحى، والثانية عن شخص سـأله زميله عن الساعة فرد عليه: تسعة وعشرة.

فصاح فيه ساخطاً: أنتم حاتذلونا بتسعة وعشرة؟!

كان قرار العقل الجمعى صواباً وكـان العقاب مروعاً لم يتحمله الرجل أكثر من ثلاثة أعوام.



كان الطريق خالياً من المارة عندما خرج الرجل من منزله يمشى على غير هدى غارقاً فى همومه، وفجأة وجد نفسه محاصراً بعدد كبيـر من البشر (جـماهير) يحملون المدافع الرشـاشـة والسكاكين والجنازير والقنابل اليدوية، صرخوا فيـه بوحشية: قف عندك أيها الوغد.. مع من أنت؟! معانا، ولا مع التانيين؟

استولى الفـزع على الرجل فألجم لسانه، نظر إليهم مصـعوقاً عاجزاً عن النطق فعادوا إلى الصـراخ: انطق يا وغد.. تكلم... معانا والا مع التانيين؟.

أخيراً تمكن الرجل من اسـتجماع قدر لا بأس به من شجـاعته الهاربة وهمس متـسائلاً: طب أعرف بس لو سمحـتم.. حضراتكم مين؟ والتانيين مين؟

ازدادت وحشيتهم وصاحوا فى ضراوة: إخرس يا وغد، أجب..

معانا والا مع التانيين؟

كما هو متوقع فى مثل هذه الظروف سارع بالإجابة الوحيدة المنقذة: معاكم.. معاكم.. معاكم.

فردوا عليه بدهشة واستنكار: معانا؟ طب خد.

وعلى الفور انطلقت مدافعهم الرشاشة لترديه قتيلاً بينما هم يتصايحون فى نشوة: احنا التانيين.. احنا التانيين.

النكتة الممتازة لا تكتسب امتيازها من جدتها بل من جديتها، تلك الجدية التى تتبدى فى قدرتها على إحداث قدر من البهجة فى نفس سامعها وقائلها أيضا بالإضافة إلى قدرتها على الكشف عن رسالتها فى تلخيص معجز.

هى تلخص بكل وضوح فى إطار من البهجة الحالة السياسية والاجتماعية التى تمر بها الجماعة فى لحظة تاريخية محددة. لذلك أتعامل معها بوصفها كتاباً ثميناً أو بحثاً يتسم بالصدق والجدية، بالطبع بعد حصولى على نصيبى من البهجة منها.

هى بالتأكيد نتاج صادق للعقل الجمعى ورسالة منه يعبر بها عن طبيعة التوترات التى تضغط عليه فيطلقها لاستعادة توازنه، تماما كما يحدث عندما تفشل اللغة وتنجح آهة الألم فى إبلاغ الآخرين بما نعانيه. والنكتة بهذه المواصفات تستحق الاحتفاء بها لندرتها، فمعظم النكت ليست أكثر من قوالب قديمة يعاد ملؤها أحيانا عمدا ثم تضخ فى الشارع كسلاح إعلامى. وفى أحيان أخرى يستدعيها العقل الجمعى ويعيد صوغها فى حال أن تتشابه الظروف التى يمر بها مع الظروف التى أوجدتها. فالنكتة التى

تسمعها عن ديكتاتور حالى من المؤكد أنها قيلت عن عشرات الطغاة فى أماكن وأزمنة عدة، غير أنها تظل دائماً قابلة للتحديث وإعادة الصياغة.

سأعطيك مثالاً عن قالب شهير ومعروف - كان الجو صحواً فى برلين الشرقية عندما فتح الرئيس الألمانى أولبريشت مظلته ووضعها فوق رأسه، وعندما نبهه مرافقوه إلى أن الجو صحو رد عليهم: هى تمطر فى موسكو.

أو ذلك الزعيم الاشتراكى الذى كان يسعل بشدة على رغم أنه غير مصاب بالبرد، وأخيراً اكتشفوا أن الرفيق ستالين يعانى من الانفلونزا. وهو قالب مشهور يسخر فيه العقل الجمعى من الاتباع والتبعية.

وإليك قالب آخر كثيراً ما يعاد تحديثه وإعادة صياغته ليلائم ظروفاً وأشخاصاً معينين. كان الطاغية يمر فى موكبه المهيب بين عشرات الألوف من شعبه وكانوا يهتفون له بحماس: يا زعيم، يا عظيم، يا مهيب، يا منقذ، يا منتصر...الخ.

واحد من الناس كان يردد بحماسة أمثال هذه الهتافات وكان معه طفله الصغير الذى قال فجأة بصوت مسموع لكل من حوله: يا أبت.. أليس هذا هو الرجل الذى تقول لى عنه أنه مجرم وسفاح وقاتل ونذل.

وعلى الفور أمسك الرجل بالطفل ورفعه عالياً صائحاً بأعلى صوته: يا ناس.. الولد ده ابن مين؟

ولكن نكتتنا التى صدرنا بها هذه المقالة لا قالب قديماً لها،

ولكنى ازعم أن بناءها الدرامى قام به شكسبير، نعم وليم شكسبير هو المبدع الحقيقى لهذه النكتة، هو الذى ثبت عناصرها الأساسية فى واحد من أهم مشاهد مسرحيته «يوليوس قيصر» وهو المشهد الذى ركز فيه بتكثيف ووضوح فكرته عن آليات العقل عند الجماهير وما يمكن أن تفعله عندما يتلاعب بها زعماؤها من خلال الكلمات. فبعد اغتيال يوليوس وقف بروتس النبيل الرومانى وأحد القتلة، وقف أمام الجماهير وأوضح لهم فى بلاغة منقطعة النظير أنه اشترك فى قتله دفاعاً عن الديموقراطية بعد أن تأكد لديه أن قيصر كان (فى طريقه) لكى يصبح ديكتاتورا، فعلت هتافات الجماهير تحييه على مجهوده من أجل الديموقراطية، بعدها وقف انطونيو الضابط الشاب تلميذ قيصر ليرثيه فى خطبة بعد أن تعهد لقتلته بأنه لن يذكرهم بسوء. وبالفعل تكلم عنهم بكل الخير، وذكر صفاتهم الحميدة كزعماء ونبلاء ولكنه شرح «للجماهير» أن قيصراً كان يحبهم لدرجة أنه أوصى لكل مواطن فيهم بنصيب من أمواله وأطيانه وحدائقه. لقد وافقت الجماهير بحماس منذ لحظات على قتل قيصر دفاعاً عن (الديموقراطية)، اقنعتها بذلك خطبة بليغة، ولكن بلاغة الدنيا لا تستطيع أن تمنع الجماهير من الاحساس بالثورة والغضب، عندما تعلم أنها خسرت نصيبها من الأموال الذى حدده لها فى وصيته، كان انطونيو يقرأ من ورقة، ولكن هل كانت هذه الورقة هى فعلا وصية قيصر؟، ولماذا كان انطونيو يحتفظ بها فى جيبه فى تلك اللحظة بالذات؟ الواقع أن هذه الورقة اختفت فى المشاهد التالية من المسرحية،

المهم أن هذه الورقة أدت دورها فى دفع الجماهير للخروج إلى الشارع هائجة غاضبة مدمرة وقد عزمت على أمر واحد هو قتل الذين اشتركوا فى قتل قيصر.

وبالقرب من مبنى الكابيتول قابلوا «سنا» الشاعر الذى كان يمشى سارحاً ساهماً على عادة الشعراء، صرخوا فيه: قف عندك، ماذا تعمل؟ وأين تسكن وما حالتك الاجتماعية أعزب أم متزوج؟ ما هو اسمك؟

استولى الفزع على «سنا» وكأغلب الشعراء بدأ يتلعثم وهو يستعيد ما قالوه: أعزب أم متزوج؟ وأين أسكن؟ وما هو اسمى؟ وماذا أعمل؟ أنا أعزب..

– عظيم يا سيدى.. رد مباشرة وبصراحة.. أين تسكن؟

– أسكن بالقرب من الكابيتول.

عظيم يا سيدى. (أريدك أن تلاحظ السخرية فى كثرة استخدام شكسبير لكلمة سيدى فى هذا المشهد، فهذه الجماهير المهذبة على وشك أن تقتل شخصاً بريئاً) بقى اسمك يا سيدى.. ما هو اسمك؟

– اسمى هو سنا.

وهنا صرخوا صائحين: آه سنا المتآمر.. سنا المتآمر.. اقتلوه.. مزقوه إربا.

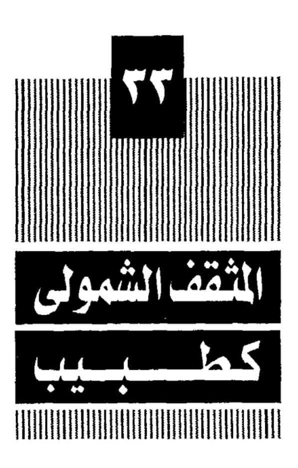
صاح سنا فى رعب: لا.. لا.. لا.. أنا سنا الشاعر.

وهنا صاح أحدهم فى اصرار: اقتلوه لأشعاره الرديئة.. اقتلوه لأشعاره الرديئة.

فعلا مزقوه إربا، ليس لأنه سنا المتآمر وليس لأنه سنا الشاعر،

بل لأنه وجد فى المكان الخطأ واللحظة الخطأ، ولأنهم يريدون أن يمزقوا الآخر. هم ضد الآخرين (التانيين) فالتلاعب بعواطف البشر لأسباب سياسية بهدف تدمير الخصوم لا ينتج عنه سوى فقدان العقل، عندها تقتل الناس شعراءها ولا يمكن حماية نفسك منهم، لا توجد طريقة تثبت بها أنك (معهم) بعد أن عجزت عن تحديد من هم؟ هل هم (الأولانيين) أم (التانيين)؟.

إذا كانت لهذه النكتة رسالة فهى تقول أنه عندما يوجد (الانا) فى كفة والآخر فى الكفة الأخرى تبدأ الجريمة. وأتصور أنها أيضا تنبهنا إلى أننا نكون أغبياء وضحايا معا عندما نتصور أن هناك الأنا وهناك الآخر. هى رسالة من العقل الجمعى تطلب منا فى لطف أن نفكر فى أننا سكان هذا الكوكب الصغير، كلنا (نحن)، كم هو غبى ومؤلم أن الجائعين فى أفريقيا يجدون أموالاً يحشون بها طائراتهم بالصواريخ ليقتلوا بها بعضهم البعض. مع من منهم نقف ومن نلوم؟ مع (الأولانيين) أم مع (التانيين) وهل توجد طريقة للتمييز بينهما؟



أحب فولتير ويجذبنى إليه تحديداً أنه خاض نفس المعركة ضد التخلف التى نخوضها الآن فى المنطقة العربية، وذلك منذ حوالى ثلاثمائة عام وهى فى تصورى فرق التوقيت بيننا وبين الغرب. فى روايته الجميلة (صادق) التى تدور أحداثها فى الشرق قبل ظهور الأديان السماوية، يقابل البطل بعد فراق طويل حبيبته القديمة التى كانت ملكة يوماً ما فيجدها تعمل جارية عند صاحب قلعة فى صحراء الأردن.

يجدها بالصدفة فجراً فى إحدى الغابات بين عدد كبير من الجوارى الحسان، كانوا جميعاً يبحثون عن شئ ما وهم يهمسون: بساليسك .. بساليسك .. إطلع يا بساليسك.

تعرف عليها وما أحلاه من لقاء ثم أخذ يستفسر منها عما حدث لها وأوصلها لهذا الحال فحكت له القصة المعروفة فى الأدب

الشعبى عن القدر وما يفعله بالبشر بعد الغزو الخارجى وكيف إنه يحول أعظم العظماء إلى أسرى وعبيد، لقد بيعت فى الأسواق ومن تاجر لتاجر إلى أن استقر بها الأمر عند صاحب هذه القلعة، ثم سألها عن حكاية (البساليسك) هذه التى يبحثون عنها هامسين فأجابته: صاحب هذه القلعة ازداد وزنه بشكل مزعج منعه من القيام حتى من مكانه، فشل أطباء القصر فى علاجه بالأدويةالمعروفة وأخيراً استقر رأيهم على أن علاجه الوحيد هو أن يشرب مرق حيوان البساليسك الصغير المسلوق فى ماء الورد . وهذا الحيوان يعيش فى الغابة ولا يظهر إلا فجراً للنساء فقط بشرط أن تنادى عليه فى همس: بساليسك .. بساليسك ، إطلع يا بساليسك .

طلب منها صادق أن تأخذه لصاحب القلعة وتقدمه له بوصفه طبيباً مصرياً شهيراً ففعلت . وجد صادق أمامه جثة هامدة من الشحم واللحم عاجزة عن الحركة فقال له: مولاى .. تخصصى الأساسى هو العلاج بالبساليسك ، ولكننا فى مصر لا نعالج البدانة بشوربة البساليسك . بل نضع هذه الشوربة ممزوجة بماء الورد وببعض التوابل الأخرى فى «قربة» ومن خلال مسام القربة يتسرب حساء البساليسك ليختلط بعرق الإنسان وينفذ من خلال مسام الجلد إلى أوردته وشرايينه ويدور مع الدورة الدموية فيحدث التأثير المطلوب فوراً .. الآن يا مولاى ستمسك بهذه القربة وتقذفها تجاهى . إمسك يا مولاي.

* كان الرجل ضعيفاً جداً ولكنه استجمع ما بقى له من قوة

وأمسك بالقربة وقذفها فى إتجاه صادق الذى إلتقطها وأعادها إليه. أغراه صادق بأن يكرر هذه المحاولة إلى أن يسيل منه العرق، فى تلك الليلة نام الرجل من فرط الإجهاد نوماً عميقاً وفى الغد كان أكثر تماسكاً وقوة وهو يقذف بالقربة لصادق . بعد أسبوع من هذه التدريبات كان الرجل قادراً على السير وركوب حصانه .

وفى النهاية بعد أن استعاد الرجل عافيته ورشاقته وقوته قال له صادق: مولاي، دعنى أصارحك، هذه القربة امتلأت بالهواء فقط .. وعلاجى يسمى العلاج بالرياضة البدنية، أما الشئ الذى يهمنى أن تعرفه حقاً فهو أن حيوان البساليسك لا وجود له على ظهر الأرض .

وفى المساء رحل صادق من القلعة ومعه حبيبته مكافأة له على أدائه مهمته بنجاح ، كان حريصاً على ألا يتناول طعام العشاء فى القصر فقد كان على يقين أن أطباء القلعة سيدسون له السم فى الطعام .

لنترك الآن صادق وحبيبته ولنترك فولتير ولنقفز ثلاثمائة عام فى الزمن إلى الأمام لنقرأ محضر اجتماع اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٤ . كان هذا الاجتماع هو الوحيد الذى حضره عبد الناصر، ومحضر الاجتماع منشور وصادر عن هيئة الكتاب، دار الحوار حول الاشتراكية، هل هى إشتراكية عربية أم تطبيق عربى للإشتراكية ،ماذا نفعل فى مواجهة العقبات التى تظهر عند التطبيق، مئات الأسئلة أطلت برؤوسها ومنها، هل يمكن تطبيق الاشتراكية بغير قيادات اشتراكية ، السؤال نفسه يتضمن

الإجابة، طبعاً لا .. إذاً من المستحيل تطبيق الاشتراكية فى غياب الإنسان الاشتراكي، هذه بديهية بالطبع ، وهكذا أخذ كل سؤال يفتح الباب لسؤال آخر وكأنها حجرات تفتح فى قصر التيه واحدة بعد الأخري، إلى أن ظهر سؤال وكأنه الوحش الكبير الذى يخرج من البحيرات فى أفلام الرعب .. من هو الإنسان الاشتراكي؟

وانتهى الاجتماع بغير نتيجة مقنعة أو حتى شبه مقنعة عن السؤال، وإلى الأبد لن توجد إجابة لسبب بسيط، أن الإنسان الاشتراكى هو نفسه حيوان البساليسك ، والمثقف الثورى الذى طلب الاستعانة بالإنسان الاشتراكى كان على يقين من أنه لا يوجد إنسان بهذه الصفة تماماً كما كان أطباء القلعة يعلمون علم اليقين أن البساليسك حيوان لا وجود له .

تستطيع الحصول على إنسان بدين أو نحيل، تستطيع بسهولة أو بصعوبة الحصول على طبيب فى تخصص معين، وتعرف من أين تحصل على فيل أو قمح أو طائرة أو مدرعة، كما تستطيع الحصول على إنسان مهذب أو مجرم، ولكن قل لى بالله عليك من أين تستطيع الحصول على الإنسان الاشتراكي؟ من تخاطب من الشركات العالمية؟ هل هو إنسان عادى معدّل أُعيد صياغته فى معاهد الإتحاد السوفيتى مثلاً؟ وهل هو متاح طول العام أم هو يظهر فى مواسم معينة؟

هنا نكتشف بعداً جديداً فى المثقف الثورى الشمولي، هو يعمل على أن يجلس على حجر الدولة، ملمحاً شهيراً من ملامحها ومعلماً مهماً من معالمها، ووسيلته إلى ذلك الإبتزاز عن طريق

الإيحاء باحتكار الحقيقة والمعرفة لذلك هو يحرص دائماً على أن يصور لك الأمر بأنه (أصعب بكثير مما تتصور) تماماً مثل الميكانيكى اللص أو العاجز تذهب إليه بعطل بسيط فى سيارتك فيفك لك الموتوركله.

إملأ مدينتك بالطعام والعدل والحرية، سيقول لك فى النهاية: كل هذا لا أهمية له فى غياب المشروع القومى .. لابد من مشروع قومى.

ولكن حكيماً آخر يحرص على أن يكون متميزاً عن الآخرين يصف لك بساليسك من نوع مختلف: لا بل هو الحلم القومي.

ماذا يعنى الحلم القومي؟ أن تحلم الناس جميعاً أثناء نومها حلماً واحداً، وماذا عن طبيعة الحلم نفسه ومشاهده، هل هو حلم (الجائع بسوق العيش) مثلاً؟

شكل آخر من أشكال الإبتزاز عند المثقف الشمولي، هو إفهامك (أن ما تعرفه قليل جداً) فأنت لا تعرف مثلاً أنه يوجد فى بلدك ١٢٤٢٤ مليونيرا، ٨٥ ٪ منهم يملكون أكثر من ٥٠ مليون دولار، ٢ ٪ يملكون أكثر من ٧٠ مليون دولار، ٤ ٪ منهم يملكون أقل من ٢٠ مليون دولار، وهناك ٦ ٪ لاتعرف على وجه التحديد كم يملكون وإن كان الرقم المتداول فى الأوساط المالية هو أكثر من ٣٠ مليون دولار. أما عدد المليارديرات فهو ٥٨٥ شخصا تقريباً مع مراعاة أن هناك ثلاثة منهم تم إستبعادهم من الإحصاء لوفاتهم فى حادث، منهم ٧٠ شخصاً فقط يملكون ٥٢٠ مليار دولار والباقون منهم ٣ ٪ يملك الواحد منهم أكثر من ٨ مليارات

و٦ ٪ منهم يملكون أكثر من ٧ مليارات إلى ٨,٥ مليار. وهكذا يستطيع أن يكمل بثقة، كما أن هناك ١٠ ملايين شخص يرتدون البدلة بصديري منهم ٦ ملايين يرتدون ربطة عنق فى شهرى ديسمبر ويناير ومنهم من٤ - ٤,٥ ٪ يرتدون القميص وياقته مفتوحة فى شهرى مارس وإبريل ويزداد العدد إلى ٥,٥ ٪ فى شهر مايو، كما يوجد ٣ ملايين شخص يرتدون الصنادل فى شهور الصيف منهم ١,٧ مليون يرتدونها فى شهرى يوليو وأغسطس فقط.

لا حد لما يمكن أن ينحدر إليه المثقف الشمولي المنشغل بالإستيلاء على عقل (الجماهير) بلا قضية حقيقية.

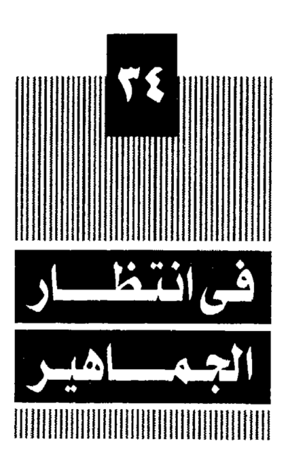
بساليسك آخر من النوع الكبير لا يمكن العثور عليه بالهمس لا فى الغابات فجراً ولا في الوديان والصحاري، هو الأمن القومى العربي، ستجد هذا الدواء موصوفاً فى روشتات كثيرة وأتحداك أن تجده فى أى صيدلية، كيف يمكن رسم إستراتيجية للدفاع عن الأمن القومى العربى ضد العدوان القومى العربي؟ إن الأمن القومى فى أى بلد هو محصلة ما يشعر به الأفراد من أمن، أى أن أمن المواطن الفرد نفسه هو ما نطلق عليه الأمن القومي. وفى بلاد لا يتمتع الفرد فيها بحقوقه الإنسانية سيعجز الجن نفسه عن حمايتها من الضياع.

لست أطالب بثورة أو حتى إنقلاب فى التفكير فى ما نردده من ألفاظ وتعبيرات. لابد من عملية جرد، من الضرورى تنظيف أدراج المكاتب من التعبيرات التى تركها أصحابها ورحلوا، كما يجب

تنظيف زجاج عدسات الكاميرات من التعبيرات الفاشية التى التصقت بها فى عهود قديمة كما يجب تسليك المايكروفونات التى انسدت من كثرة التعرض لغبار الألفاظ الغوغائية.

المشروع القومى هو نفسه المشروع الفردى ويقوم به فرد، والحلم القومى العربى هو العمل على تحقيق أحلام الفرد وكل فرد.

الإنسان الفرد هو أداتنا الوحيدة التى نتعامل بها مع الحياة وأى محاولة لاستخدام أدوات أخرى لن ينتج عنها سوى الألم والحسرة وربما الحصار.



فى صراعات السلطة فى الحكومات الثورية عندما تصل إلى حد الصدام المكشوف، من العبث أن نتساءل عن الطرف الذى يقف بجانبه الحق، فلا حق ولا باطل فى صراعات السلطة ولا ظالم ولا مظلوم. يوجد فقط غالب ومغلوب تماماً كمباريات الكأس فى كرة القدم التعادل لا يفيد، لابد من الهدف الذهبى تسجله فى مرمى الخصم فتغيبه عن الساحة نجماً آفلاً وتشرق أنت عليها قمراً منيراً.

وطريقة التغييب تختلف من مجتمع لآخر وإن كان الطابع الغالب فى العالم الثالث هو أن ترسل بخصومك المستهدفين إلى العالم الآخر من أقصر الطرق. أما فى مصر فقد كنا نضعهم فى سجون خمس نجوم فهم فى نهاية الأمر وبالرغم من كل ما (ارتكبوه) ينتمون لأشرف القبائل على وجه الأرض وهى: السلطة.

وفى صراعه مع مراكز القوى فى مايو ١٩٧١ استطاع

السادات أن ينتصر على خصومه ليس بالضربة الفنية فقط ولكن الناعمة أيضاً، استطاع القبض عليهم جميعاً فى نعومة وسلاسة وأودعهم السجن. ففى ذروة الصراع أعلنوا جميعاً وكانوا يمثلون كل قيادات مصر الشعبية والحكومية، أعلنوا استقالاتهم تباعاً فى الإذاعة المصرية بصوت مذيع شعبى جماهيرى متحمس وحرصوا قبلها وبعدها على إذاعة موسيقى حماسية من ذلك النوع الذى يغرى (الجماهير) بالنزول إلى الشارع ثم جلسوا فى منازلهم فى انتظار الجماهير التى ستأتى حتماً لتحملهم على الأعناق وتطلب منهم سحب استقالاتهم وعدم التنحى تماماً كما فعلت مع عبد الناصر منذ أربعة أعوام فقط. ولكن الجماهير لم تأت، الذى أتى هو مجموعات القبض التى أرسلها السادات إلى بيوتهم في الوقت نفسه التى كانت فيه الجماهير تستمتع بأمسية الخميس المهمة فى حياة المصريين. وهذا عنصر مضاف، فالحس البيروقراطى كان قوياً للغاية داخل هذه القيادات الحكومية والشعبية، ولما كان البيروقراطى بطبيعته يميل إلى تأجيل عمل اليوم إلى الغد فإنه فى يوم الخميس بالذات سيؤجله إلى ما بعد غد، أى إلى يوم السبت فأتاح ذلك للسادات أن يضرب ضربته باطمئنان يومى الخميس والجمعة.

لم تخرج الجماهير إلى الشارع لسبب بسيط، لا يوجد وجود مستقل للجماهير فى العالم خارج العقل وبعيداً عن أصابع السلطة، السلطة المباشرة داخل الحدود، أو أصابع سلطة أخرى تنتمى لعاصمة بعيدة. هى معنى مطلق من صنع العقل نفسه، أما المعانى الجزئية المحددة فهى موجودة بالفعل على الأرض خارج أنفسنا، توجد قوات شرطة، وقوات مسلحة، وأمن دولة،

ومخابرات وسجون ومحاكم. كما توجد الشرعية وهى من أهم الثوابت في عقول المصريين. إن الإحساس بالشرعية كان قوياً داخل عقول خصوم السادات وإلا كانوا أعلنوا استقالته هو وأرسلوا بمن يقبض عليه فقد كانوا يملكون الشرطة والمخابرات وبقية إدارات الحكومة كلها.

فى مسرحية «فى انتظار جودو» ينتظر إثنان من التعساء شخصاً اسمه جودو سيأتى لتخليصهما من بؤسهما، هما على يقين من أنه سيأتى ولكنه لا يأتى لسبب بسيط، هو أنه لا وجود له سوى فى مخيلتهما.

خاض السادات معركته مسلحا بخبرة ثورية طويلة زادته وعياً بخرافة المفردات الثورية التى ليست أكثر من معان مطلقة مستحيلة التجسيد على الأرض، كما خاضها مسلحاً بذكائه العادى فتمكن من هزيمة خصومه المسلحين بالذكاء الخارق. لا أعرف لماذا أعطت اللغة بعض أنواع التفكير هذه الصفة، هل لأنه يماثل القذائف الخارقة الحارقة، هل لأنه يخرق عقول أصحابه أم لأنه ينشأ عن خروق فى عقلهم؟!

السادات صاحب خبرة طويلة فى الشارع ويتمتع بحس تاريخى قوى للغاية، فهذا الرجل الذى لم يكف عن المغامرة والحركة في شبابه وجد أن أفضل ما يفعله بعد الثورة هو أن تسكن حركته تماماً، ففى وجود المغامر الأعظم لا داعى للمغامرات الصغرى، وفى وجود صاحب أعظم الحركات لابد من الامتناع عن الحركة والتحرك، وفى وجود القائد التاريخى الملهم العظيم الذى لا ينطق إلا الحق والصواب فعليه أن يعزف كلمة «نعم» بكل النغمات

وأعذبهـا، وفى وجود هؤلاء الذين «يفهمـونها وهى طائرة» لا داعى لأن تظهر أنك تفهم شيئـاً على الإطلاق، وبذلك كله يتزايد الاحتمال بأن تسقط الثمرة فى يدك فى النهاية، وهو ما حدث فعلاً.

كان السادات يعى بأن الشعب المصرى لا شأن له على الإطلاق بما يحـدث من صـدام فى بناية السلطة بين المسـئولين من سكان الأدوار العليا، هذا هو مـا تعلمه من تراث الحكم الملوكى الطويل، فى مثـل هذا النوع من الأحداث عليـه أن يلزم داره وأن يغلق على نفسه الأبواب والشبابيك بكل ما يملك من مزاليج ومتاريس وبذلك تخلو الشـوارع والميـادين والحارات من الـبشـر فـيتـاح لأطراف الصـراع إنهاؤه بسـرعة لصـالح الطرف صاحب الهـدف الذهبى. وليس لذلك صلة بالقـيم الإنسانيـة من جبن وشجاعـة، هذه نظرة واقعية وسلوك عملى، فعندما تـكون وظيفتك الوحيدة هى الفرجة على حكامك من بـعيـد فى المواسم والأعـيـاد، ثم يتـحـول هؤلاء الحكام إلى مـلاكمين ومصـارعين فمن البـلاهة أن تدخل بقـدميك الحلبة بينهم فتموت أنت بالقاضية بلا ثمن وبغير قضية.

وإذا كانت الجماهير مـعنى كلى مطلق فقد كان السادات يعلم أن «السلطة» أيضاً معنى مطلق لا يمكن الإمساك به تماماً كالهواء ولكن أفرادها المؤثرين لهم وجـود فعلى، يوجد فلان الفـلانى الذى يحتل منصب كذا ومكتبه يقع فى الدور الفلانى فى المبنى رقم كذا بشارع كيت، وهو يقيم فى المنزل الفلانى شـقة رقم كذا وبما أنه أقال وزير الداخلية فـمن حقه أن يعين على الفـور وزيراً آخر له صلاحـية أن يرسل برجاله للقبض على كل (الأفلنة، جـمع فلان على ما أتصور) هكذا قبض السادات على كل رجال السلطة وأودعهم السـجن.

بالحتم سينشأ فراغ إعلامى مفاجىء لأن غالبية الكتاب والصحفيين كانوا على صلة مباشرة بالجناح المهزوم ولكن أمكن ملء هذا الفراغ فى لحظات بأن تولى الأستاذ محمد حسنين هيكل قيادة الأوركسترا الإعلامى الجديد ببراعة وإبداع «صانعاً» رأيا عاماً جديداً ضد المغلوبين، ويعد أعوام طويلة من مساهمته الفعالة فى إدخالهم إلى السجن، انضم إلى تشكيلاتهم بعد الافراج عنهم أو انضموا هم إليه وأصبحوا سمناً على عسل وهذا يدلك على أنه لا قضية فى صراعات السلطة، ولا إساءة ولا مسىء ولا مساء إليه، وأنه من الممكن أن ينتقل اللاعب من النادى الخصم إلى ناديك فيحظى بحفاوة جماهيرك وحماستها، وبذلك لا يوجد مبرر لوجود الانفعالات الإنسانية من غضب أو حب أو كراهية أو خلافه.

كان لابد أيضاً فى الوقت نفسه من تحييد جماعات اليسار من الحرس القديم فعين وزيراً جديداً للإعلام ينتمى نظرياً أو شكلاً لليسار، كان الانطباع العام أنه يسار، ولعل السبب فى ذلك هو أن أخته كانت أستاذة يسارية شهيرة. وعندما استقر الأمر بعدها للسادات بطش بهيكل وبالوزير وباليسار كله. ترى هل قرأ السادات مقولة ميكيا فيلى الشهيرة «تخلص من كل هؤلاء الذين أوصلوك إلى الحكم دفعة واحدة ثم تفرغ لإقامة العدل» أنا على يقين من أنه قرأ – على الأقل – الشق الأول، أو لعله قرأ النصيحة كلها ولم يتسع لديه الوقت لتنفيذ الشق الثانى.

فى عالم السياسة يوجد اشخاص يعتبرون أنفسهم (صانعى ملوك King Makers) هيكل أحدهم ولقد ساهم بالفعل فى بناء عرش عبد الناصر الإعلامى (يسمى احياناً، شارع، جماهير، رأى

عــام) ولكن السادات ليس فى حــاجــة لمن يصنعه أو يشــارك فى صنعه فهو رجل من صنع نفسه (Self made man) وعليه أن يلعب على خشبة المســرح دور الفرد البطل ولا يجب أن يقف إلى جواره من يلعب الـدور الثــانى، وإذا كــان لابد من وجــود أدوار أخــرى فلتكن جـميعــاً ثانوية. هناك بعد آخــر فى شـخــصيــة السادات له أهمية قـصوى فبالإضــافة لخبرته العـملية بنى البشــر فى أعمال بسيطة، فــهو قد عــمل أيضاً فتــرة طويلة بالصحافــة وبين الكتاب ويعرف عنهم مــا لا يعرفه القراء، على الأقل كان يــعرف أن مهنة الكتــابة لا تعنى الصدق دائمــاً، وأن الصــيـاغــات البليغــة المعقــدة المتعالمة يكون الهدف مــنها عادة هو تفادى ذكر الحقيــقة أو العجز عن استيــعابها، لذلك كان من المعروف عنه عندمــا يدخل عليه أحد مساعديه بمذكــرة من عشرين صفحة أن ينحيهــا جانباً ويقول له: قل لى بالبلدى كده.. مكتوب فيها إيه؟

لقد لعب السادات فى البـداية ولمدة ثلاثة أعوام على الأقل وهـى الفتــرة التي كان يعد فــيها لحرب أكــتوبر، لعب بتصــريحاته دور الحاكم الذى يثير الضحك، لدرجــة أن كاتباً ظريفاً، لابد أن نتوقف عنده قليلاً، هو محمود السعدنى قال محدداً الفرق بين عبد الناصر والســادات (الأول كان حــايموتنا من الخــوف، وده حــايموتنا من الضحك) الواقع أن حديثه عن الحرب والمعــركة كان من المستحيل أن يأخــذه مخـلوق على محــمل الجــد، وبعــد الحرب قــال كــاتب إســرائيلى (لقد خــدعنا السادات بأن أوهــمنا أنه يخدعنا، بالفــعل خدعنا عندما تظاهر بأنه يخدعنا).

كــان أغرب مــا حدث فى انقــلاب مايو ١٩٧١ هو القــبض على

وزير الداخلية شعراوى جمـعة وهو شخص نزيه لم تشب سيرته شائبه غير أن القواعـد الراسخة فى الأنظمة الثورية هى أن وزراء الداخليـة لا يسـتـقيلون أو يقـالون بل يقبـضون على الآخـرين أو يختفـون وأوضح مثال لذلك هو ما حدث لبـريا وزير الداخلية فى عهد ستالين الذى صدر بشأنه أكثر البيانات بلاغة وإيجازاً منذ أن عرفت الكتابة (قبض علـى بريا وحوكم وأعدم) كانت المرة الأولى فى تاريخ المنطقـة على الأقل التى يدخل فيـها وزير داخليـة نظام ثورى السـجن، وفى السـجن التـقاه مـحـمود السـعـدنى الكاتب المصرى وآخر ظرفاء عصره، فقد حكم عليه هو الآخر بثلاثة أعوام سجن فقط فى قضية المؤامرة، والسبب فى أن الحكم صدر مخففاً أن السعدنى فى حواره المسجل على أشرطة مع مراكز القوى وهى المستند المادى الوحـيد فى قـضية المؤامـرة، قال جملة أمـسك بها المحامى بإحكام وهى (ربنا يولى من يصلح) أخذ المحامى يتصايح فى المحكمـة: يصلح، يصلح، يصلح.. لقـد قـال لهم ربنا يولى من يصلح.. لم يطلب من الله أن يوليهم هم ولكـنه كان يطلب الصلاح لمصـر كأى مـواطن شريف.. لو أنه كـان مـعهم لكان دعـاؤه لهم بالوصول إلى الحكم.

ومع ذلك دخل السجن لوجود كلمات عدة مسجلة على الشريط اعتـبرها السـادات بذيئة، والسعـدنى هو صاحب الكتـاب المخيف (الطريق إلى زمش) الذى يصـف فيـه الممارسـات المروعـة لنظام عبدالناصر مع المثقفين فى السـجون والمعتقلات. لم يكن السعدنى منضـمـاً لأى تنظيم سـرى أو علنى ومع ذلك دخل كل سـجـون مـصر. أمـا (زمش) فهـو الاسم الحركى الـذى اختـاره لتنظيمـه

الخاص وهو اختصار لعبارة (زى ما أنت شايف) وعندما يقرأ المؤرخ بعد مائة عام أو ألف كتابه، فمن المستحيل أن يشعر باحترام أو تعاطف مع هذا النظام الذى ارتكب كل هذه الأفعال الوحشية بمواطنيه بلا مبرر واضح، وبعد أن تعب السعدنى من دخوله المتكرر إلى السجن قرر حماية لنفسه أن يقترب من الشخص الوحيد الذى يقبض عليه فى كل مرة، وزير الداخلية، وبالفعل أصبح السعدنى أميناً للتنظيم الطليعى فى منطقة الجيزة، فى الوقت الذى كان فيه شعراوى جمعه أميناً عاماً للتنظيم الطليعى فى مصر كلها.

استولت دهشة مروعة على السعدنى لرؤية وزير الداخلية وأمين عام التنظيم للاتحاد الأشتراكى مرتدياً بدلة السجن، وبعد أن تمالك نفسه قال له: لقد اقتربت منك وصادقتك بوصفك أعظم مركز للقوة فى مصر، لكى لا أدخل هذا السجن، ومع ذلك ها أنذا أدخله لأجدك مسجوناً معى.. ومع ذلك يقولون عنكم أنكم مراكز قوى.. ماذا تكون مراكز الضعف إذاً؟

بعد مرور أشهر عدة، زار صلاح السعدنى الممثل المعروف أخاه فى السجن فقابل معه شعراوى جمعة الذى سأله بلهفة: الجماهير عاملة إيه بره يا صلاح؟

قال لى صلاح: والله لولا جلال الموقف لوقعت على الأرض من شدة الضحك.. الرجل مازال يتكلم عن الجماهير!!

الإيداع ٩٩/١٤٥٦٥
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0873 - 3

هذا الكتاب

كتاب «هل لديك أقوال أخرى؟!» من الكتب التى تجعلك تبتسم كلما تذكرت واقعة من وقائعها مهما طال الزمن.. فالمؤلف كاتب من جيل الأدباء العظام.. كتب العديد من المسرحيات الضاحكة.. وعشرات الكتب ومئات المقالات الساخرة.. وهو قادر على أن يجعلك تضحك مهما كان الموضوع الذى يكتبه أو يعرضه.. حتى ولو كان مغرقا فى الجدية.. والضحك عند على سالم ضحك راق.. فهو يعتمد على كوميديا المواقف وليس على القفشات أو البذاءات أو النكت.. فالنكتة تضحك عليها مرة واحدة.. أما الموقف الضاحك فيجعلك تبتسم كلما تذكرته.. لذلك فإن كوميديا المواقف هى أرقى أنواع الكوميديا على الإطلاق.

نبيل أباظة

طبع بمطابع أخبار اليوم

الثمن ٥ جنيهات